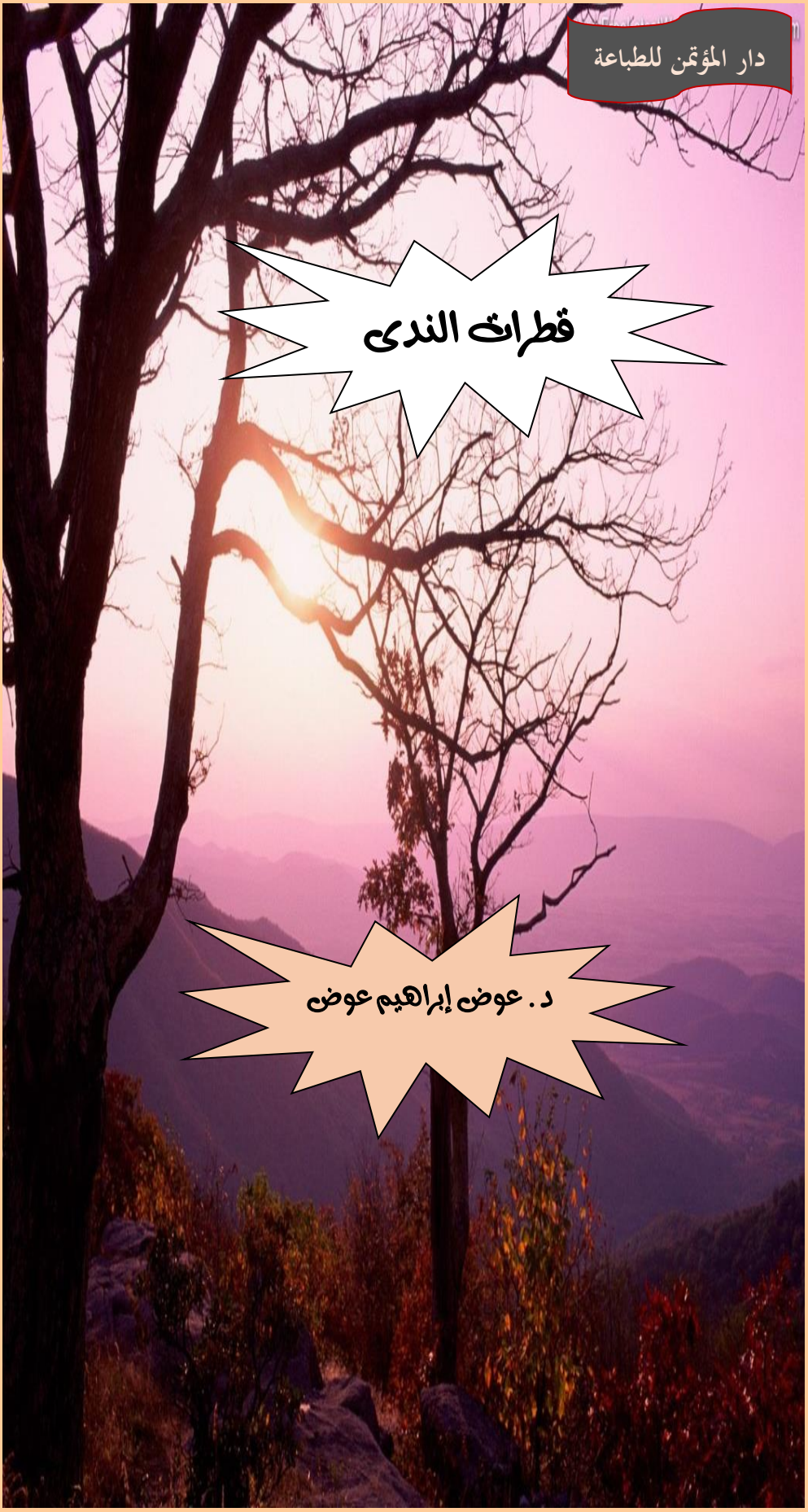

دار المؤتمن للطباعة

قطرات الندى

د. عوض إبراهيم عوض

قطرات الندى

دار المؤتمن للنشر والطباعة والتأليف
2005م
فهرسة مكتبة المؤتمن، بدار الإحسان
عوض إبراهيم عوض
قطرات الندى
140 ص؛ 17×24 سم

© عوض إبراهيم عوض

الطبعة الأولى
سبتمبر 2005م

جميعُ الحقوق محفوظة للمؤلف

قطرات الندى

◆◆◆

د. عوض إبراهيم عوض

دار المؤتمن للطباعة والتأليف والنشر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هُوَ الذي بَعَثَ في الأُميينَ رسولاً
منهم يتلو عليهِمْ آياتِه ويُزكِيهِمْ
ويُعَلِّمُهم الكِتَابَ والحِكْمَةَ
وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي
ضَلالٍ مُبينْ.

صدَقَ اللهُ العظيم

﴿الفهرست﴾

الموضوع **الصفحة**

الآية الكريمة 4

الفهرست..... 5

أنا والحلنقي وقطرات الندى..... 7

مجالس النهود..... 10

ماذا دها السينما يا وزراء ثقافة السودان؟..... 19

مع الرشيد في قصر الرشيد..... 28

في بلاد الأقزام..... 33

في عيد الصحافة المئوي..... 46

كابلي يجدد وضوء المديح..... 50

بين أطلال بابل..... 53

سينما كركاب..... 56

رجاء حسن حامد..... 60

محمد وردي والكرامة..... 65

التمازج الثقافي ومكونات الشخصية..... 72

اكتشاف مصطفى سيد أحمد..... 81

تأميم الصحافة..... 86

نجوم بعيدة..... 89

تدريب المذيعين 93

ليلة الحزن الكبيرة..... 97

عرس جامعة أفريقيا..... 101

فنانون ومبدعون في رحاب الإيدز..... 139

فلترقبوا الريح الأحمر..... 110

عودة إلى الريح الأحمر..... 114

جسر النيل الأبيض!..... 139

الإعلام وتنمية الإنسان..... 123

أنا والكلنقي وقطرات الندى

العزيز القارئ لك التحية والتقدير. ألتقيك اليوم من خلال هذا العمود الجديد الذي سيطالعك أسبوعياً إن شاء الله في مثل هذا اليوم بصحيفة الأضواء الحبيبة إلى النفس والروح. وقد اخترنا له عنوان (قطرات الندى). والوعد بيننا سيكون بمشيئة المولى هو التلاقي على أوراق الورد التي تتلاقح فوقها هذه القطرات النديات نداوة جمالكم. وسنحاول أن ندق على كل أبواب الإبداع علها تفتح لنا مصاريعها الرائعات لنبثكم عبرها بعضاً من الشوق للقياكم عبر حروف أنتم صانعوها. ولن نكل ما دمتم أنتم في معيتنا زاداً للطريق وجمالاً لا ينضب في التلقي. وفي الواقع فإن صحيفة الأضواء بالنسبة لي تمثل شرياناً إضافياً لنبض الفؤاد لأنني منها وإليها. وشهدت معها أجمل سنوات العطاء الصحفي عندما كنت صبياً في مجال الكتابة. ولعل القراء الأعزاء يذكرون أعوام الديمقراطية الثالثة حيث كانت الأضواء تطل عليهم كل سبت وثلاثاء كأجمل ما تكون الإطلالة وأحلى ما يكون الإشراق. كنا أسرة متجانسة بالصحيفة تكد طوال الليل وتسعى طوال النهار

لتمتع القراء بما يتيسر من المعلومة والخبر والطرفة والصورة والتحقيق والفكرة والحوار. وكان على رأس هذا الإبداع المتواصل أستاذنا الصحفي المخضرم محمد الحسن أحمد الذي أنتهز هذه الفرصة وأحيي مقدمه السعيد والنهائي إلى أرض الوطن. وكان معنا بالصحيفة آنذاك ربانها العظيم الراحل محمد سعيد معروف. وعلى يمينه ويساره نفر ليسو بالكثيرين عدداً ولكنهم نسيج متجانس مثل آلاف الطيور المغردة في سرب جميل يصبو لإمتاع الإنسان. كان من أهم أركان الصحيفة آنذاك الأستاذ مصطفى أبو العزايم والأستاذ صلاح التوم من الله والأستاذ أحمد عبد الوهاب والأستاذ أحمد عثمان الذي برع في تصميم الصفحات في زمان لم يكن فيه للكمبيوتر وجود بصحف السودان. وكان من كتاب الصحيفة الدائمين الدكتور الجزولي دفع الله والدكتورة بخيتة أمين والأستاذ كامل محجوب والدكتور إبراهيم دقش وشخصي الضعيف الذي خلف الصديق الشاعر المرهف محمد نجيب محمد علي في تحرير الملف الثقافي الأسبوعي. كنا كالجسد الواحد نسهر الليل والنهار لتخرج الصحيفة في أبهى حللها الزاهيات. واليوم يعاودني الحنين بدعوة كريمة من أحبابي وأصدقائي القائمين على أمرها والذين خرجوا بها حقاً إلى بر الأمان في أقصر فترة زمانية تشبه

المعجزات حتى غدت وجبة شهية دسمة للقراء في كل مكان. وفي الواقع عندما وافقت على كتابة هذا العمود كان السؤال الذي طرح نفسه وألقاه علي الصديق عوض محرر الصفحة هو ماذا نسمي هذا العمود؟ ولم نفكر كثيراً حيث كنت أجلس بينه وبين الصديق العزيز المبدع الفنان إسحق الحلنقي. وبعد أن تحدثنا عن طبيعة العمود وشكل تناوله للموضوعات قلت للحلنقي لا يمكن أن أختار اسماً لهذا العمود وأنت موجود. فضحك وقال لي بلا مقدمات سميه (قطرات الندى). فوافقت دون تردد وقلت له: من الذي يقوى على أن يرد طلباً لإسحق الحلنقي؟ فقال لي كان هذا عنواناً لعمود لي حررته قبل سنوات طويلة ولم يزل محفوراً في وجداني عبر الزمن. فقلت له هنيئاً لنا وللقراء بعنوان يختاره الحلنقي، وها نحن نتواصل عبره طوال الأسابيع.

❄❄❄

مجالس النهود

﴿10﴾

الحياةُ في مدينتنا النهود حياةٌ بسيطة بكل المعاني. وقاسمها المشترك هو القراءة والأنس في الليالي المقمرة على كثبان الرمال الناعمة التي انتشرت في كل مكان. وشغلُ الناس الشاغل هو الخروج في الأمسيات لاجترار الحديث عما تجود به القرائح. وسمر الأرياف ليس كسمر المدن أو العواصم، حيثُ إنَّ اهتمامات أهل الريف في معظم الأحيان اهتماماتٌ بالأمور الثقافية والفكرية التي تعتمدُ على اجترار ما قرؤوه من أمهات الكتب وما سمعوه من المحطات الإذاعية المختلفة وما تعلموه في المعاهد والجامعات. ولذلك لعب عنصر الحوار الشفهي دوراً أكبر وأهم في إذكاء جذوة المعرفة لدى سائر أهل النهود شيباً وشباباً. وظلت مجالسُ الأنس هي القاسم المشترك لأمسياتهم. بعضهم يقيمها داخل الأندية الثقافية، وبعضهم في المدارس أو المعاهد أو حتى صالات الدكاكين. وبعضهم في الميادين العامة وسط البيوت التي تتحول في المساء إلى أنديةٍ متناثرة بين الأحياء والفُرقان تضم كثيراً من شباب الحي. وقد لعب صراع الأجيال دوراً هاماً في جعل كل مجموعة تحسُ بأنها سيدة المجالس ولا أحد سواها. واشتهر من أهل

النهود رجالٌ مبدعون أصبحوا رواد السمر وأهل الحكاية والدراية بكل بواطن الأمور. وظلوا يتسيدون المجالس في كل الأحيان، يتحدثون عن مختلف الأمور بأسلوب يجذب الحاضرين الذين سرعان ما يتحولون لآذان صاغية وقلوب مرهفة لتلقي الطرائف والمعارف، ومنهم: **(أحمد عبد الرحيم سوبا)**، و**(محمد أحمد نور)**، و**(عبد القادر منعم منصور)**، و**(أحمد جريقندي نعيم)**، و**(محمد إبراهيم دبوجة)**، و**(حامد التوم العركي)**، و**(مكي إسماعيل مهدي)**، و**(أحمد بكري ميرغني)**، و**(أحمد عمر الحاج)**، و**(كامل السيد مكي)**، و**(عثمان النور دفع الله)** و**(صالح حمزة عبد الباقي)**، و**(الأمين أحمد نور)**، و**(إبراهيم صافي)**، و**(التجاني عمر عوض)**، و**(محمود الجراح)** و**(عمر حامد)** و**(الصادق قندول)**، و**(محمد زين عثمان البقاري)**، و**(عبد المجيد عوض الله)**. ولحقهم من جيل الشباب **(عثمان مكي الخليفة)**، و**(عصام إبراهيم عمر)**، و**(عبد الوهاب صالح)**، و**(صديق حاج أحمد فضل)**، و**(محمد عبد الله الجدع)**، و**(دفع الله أحمد بابكر)**، و**(أزهري التجاني الشيخ)**، و**(عادل إبراهيم عمر)**، و**(حسن إسماعيل موسى الحدربي)**، و**(عبد المنعم يوسف الخضر)** و**(معتصم مكي أبو ورقة)**، وغيرهم من رواد المجالس الذين وهبهم الله ناصية الكلام. ومعظم مجالس

الأنس قد نشأت في بيوت المآتم التي ظلت على مر السنوات تشهدُ إقبالاً متصلاً من أهل المدينة الذين غالباً ما يحولون الحزن إلى فرح مستديم طوال أيام المأتم بطرحهم الذي أصبح جهاز إعلام متحرك للعديد من الأمور الثقافية والفنية والسياسية والدينية والاجتماعية وغيرها على بساط الأُنس. وفي كل هذه المجالس ظل الجميع يسهمون بآرائهم وملاحظاتهم التي تكون في معظم الأحيان مسنودةً بالأسانيد والشواهد التي تثري الأنس الذي يتحول في كثير من الأحيان إلى نقاشٍ يفضي إلى الجدل أحياناً، إلا أنه غالباً ما يزيد حصيلة الحاضرين المعرفية. ومن ثنايا هذه المنتديات خرج للمجتمع كثير من أصدقاء الطفولة والصبا الذين ركضنا معهم خلف أسراب الطيور في مدينتنا الصغيرة حتى صاروا في مستقبل الأيام ملء السمع والبصر. لقد خرجوا من حواري وأزقة هذه المدينة الصغيرة ليملأوا ساحات العطاء في شتى ميادين العمل العام والخاص بالسودان. وقد عركتهم طبيعةُ البساطة التي تشربوها من قيزان الرمال وباسقات التبلدي وأريحية الفرقان إلى جانب الطموح الزائد بين كثبان خور أبو قَمَراية، وجبال الكِرَمْ، وتلال حيدوب، وأودية الصُرفان بالقرب من رهد السلك، ورهد الحسين، وفولة منعم، وفولة تاما. وأبت نفوسهم الأبية إلا أن يكون لهم شأن في خضم

هذه الحياة رغماً عن أنف المستحيل. وخرج من هذا الجراب المملوء بالعطاء والرحمة مبدعو مدينة النهود الذين أسهموا في رُقيِّ الوطن الكبير بشتى ميادين الثقافة والفكر والسياسة والأدب وعلى رأسهم: محمود الجراح، محمد أحمد أملس، شرحبيل أحمد، التجاني عبد الهادي، الحسين الحسن، تاج السر الحسن، حامد التوم العركي، صديق عباس، علي محمد شمو، عبد القادر منعم منصور، بشير البدوي عبد الساتر، إبراهيم منعم، عثمان النور، إبراهيم صافي، محمد أحمد الطاهر أبو كلابيش، إبراهيم البدوي، الربيع علي عثمان، إبراهيم موسى أبا، إبراهيم أبو كواية، سعد الدين حسن عبد الله، محاسن سيف الدين، وعشرات الذين أرادوا أن يكونوا في خارطة الوجود فكانوا. وكان قاسمهم المشترك هو مجالس النهود. وفي حقيقة الأمر ساعد على تطور هذه المجالس التي أصبحت شكلاً حقيقياً من أشكال الاتصال الإنساني بمدينة النهود والذي يمكننا أن نسميه اتصالاً إعلامياً بمعنى الكلمة أنَّ أماكن السمر الرسمية فيها ليست بالكثافة المعهودة في بقية مدن السودان، حيثُ ظلت الأندية هي الملاذ الأوحد لسنوات طويلة وعلى رأسها **(نادي السلام)** الذي أسسه أبناء المدينة في عام 1917م عندما كان الإنجليز يسيطرون على مقاليد الأمور في كل

بقاع السودان. وكان نادي السلام بذلك من أوائل الأندية السودانية على الإطلاق التي نشأت نتيجة الكبت الاستعماري والحملات الوطنية والثقافية المكثفة التي قادها الوطنيون للخروج من ربقة الاحتلال. وأصبح هذا النادي بحق واحداً من أهم وأخطر مجالس النهود التي رسخت في ذاكرة التاريخ. حيث قاد أعضاؤه حركةً فكريةً قوية تغلفت أهدافها السياسية بالليالي السامرة والمنتديات الأدبية والثقافية، مما جعل العديد من الأندية في السودان تنحى منحاه فيما بعد رغم أن بعضها لم يدرك أن سبب قيامه كان نادي السلام. وبما أن النادي قد آل على نفسه أن يقود مسيرة الفكر والعلم بالمدينة فقد قاد العديد من الليالي التي دعا لها القادة الوطنيين من الخرطوم وغيرها بغرض زعزعة الاستعمار البريطاني وكان على رأس الذين دعاهم الأستاذ أحمد خير المحامي الذي يعتبره السودانيون الأب الروحي لمؤتمر الخريجين. ورغم أن الرواد من أمثال أحمد البُقّي وإبراهيم الحاج عوض ومن بعدهم محمد إبراهيم دبوجة ومحمد أحمد نور ورفاقهم لم يكونوا من خريجي الجامعات ولا حملة الشهادات العليا، إلا أن شغلهم الشاغل قد كان التحدث عن السياسة والنضال الوطني وخطل التنظيمات السياسية ومن قبلها صلف النازية، وعنجهية موسوليني، وتطور جيش

الحلفاء إبان الحرب العالمية التي أشعلت فتيل الحزن من عام 1939 إلى عام 1945م. وتواصل كفاح الكلمة لديهم وتنامى تشبثهم بأهداب الوطن من خلال فعاليات هذا النادي العريق الذي نال من الإنجليز ما نال. ولم يكن ذلك النشاط يروق للمفتش البريطاني الذي هدد الأعضاء بالزج بهم في غياهب السجون إذا لم يتخلوا عن أطروحاتهم المناوئة لسلطة الدولة البريطانية. وكان الصراع بالفعل قد احتدم بين أبناء النهود والسلطة البريطانية رغم أن بعضه قد كان من وراء الكواليس بحكم طبيعة تلك المرحلة. كان شباب النهود الطامحون إلى فجر الحرية يلتقون في برندات السوق، وتحت أشجار النيم واللبخ الذي تسامق في النهود إلى أعلى ما يكون بحكم الطبيعة الغنية لتربة المدينة، وأحياناً يلتقون في بيوت الأفراح أو المآتم في حي أبو دقل، وحي الشايقية، وحي البخيت، وحي أبو سنون، وحي الرديف، وحي العمدة، وحي أبو جلوف، وحي الطويشة وحي مرازيق وحي برنو وغيرها من الأحياء التي تنبض بالحياة، وليس في معيتهم غير الحديث عن الدور المرتقب الذي حانت ساعته لتحرير السودان من ربقة الإنجليز. وكانت النتيجة الحتمية أن أصبح أبناء هذه المجالس تحت الرقابة المشددة من قبل الحكومة البريطانية. وقد تعرضوا لكثير من

المضايقات والاستجواب رغم أنهم لم يأبهوا لذلك. وكان واضحاً أن رواد مجالس النهود في تلك الحقبة قد حملوا فكراً وطنياً ثاقباً وتجربةً عملية لم تتح لكل أبناء الأرياف السودانية من الذين حرمتهم القيود من نيل التعليم، ولذلك كان حظ أبناء النهود أفضل بكثير من خلال دراستهم بالمعهد العلمي ثم مدرسة شيخ التجاني والمدرسة الشرقية ثم الغربية فيما بعد. وصقلتهم التجربة حتى أصبحوا متفردين في عشقهم للثقافة وتناولهم لأمور المعرفة والفكر بشكلٍ عميق ودقيق لا يؤمن بقشور الأشياء. واستفاد الجميع من تعلقهم بإفرازات الثقافتين الشرقية والغربية التي نهلوا معظمها من مجلة العروة الوثقى ومجلة الفجر وغيرها، ثم محطات الإذاعة العالمية عندما أصبح الراديو حقيقةً واقعة خصوصاً في الأربعينيات الأولى وما تلاها. وظلت إذاعة البي بي سي تمثل بالنسبة لهم القدوة الأمثل في تناول المعلومة والخبر. حتى لا نكاد نجد رجلاً من رجال النهود لا يسهر مع هذه المحطة، وإلا فهو أسيرٌ لصوت أميركا، أو مونت كارلو، أو صوت العرب، أو إذاعة الكويت، أو أم درمان. وفي زاويةٍ أخرى من زوايا الثقافة برع أهل النهود في تأسيس المكتبات الخاصة في بيوتهم التي فاق بعضها في حجمه المكتبات العامة ومن ضمنها مكتبة الأستاذ الراحل (أحمد جريقندي

نعيم) التي حرص على العناية بها طوال حياته إلى أن غادر هذه الفانية وليس في معيته غير حب العلم ونثره بين تلاميذه المنتشرين في كل أنحاء السودان. وبالمثل أيضاً كانت مكتبة الأستاذ (عبد الرحمن حسن عبد الرحمن) التي حرص على تجليد جميع ما فيها من أمهات المراجع التي أصبحت بالفعل مورداً لكل أبناء حي الشايقية وما جاوره من أصدقاء الأسرة الذين لا يحلو لهم الجلوس إلا بين منزل حسن عبد الرحمن ومنزل عبد القادر الشايقي. وفي كل الظروف فالمكتبة تنتظر من يريد النهل من معين الثقافة الثر. ونتيجة لهذا الدأب على القراءة والاطلاع تطورت مكتبات السوق التي تعرض مختلف العناوين لأمهات الكتب وغيرها، حيث وكان الفضل فيها لنفر كرام من أبناء المدينة منهم (عبد الرحمن الزين)، و(شيخ مدني عبد القادر)، و (أبو عاقلة عبد الرحمن) وقبلهم الحاج (أحمد نور) الذي كان على صلة وثيقة بدور النشر في القاهرة ولبنان. وكان يأتي بالمؤلفات والمجلات عن طريق صديقه العزيز يوسف سليمان صاحب أكبر المكتبات ودور التوزيع في عاصمة كرفان آنذاك. ثم جاءت بعد ذلك مكتبة مركز الشباب التي وضعت لبناتها بجوار مسجد النهود الكبير. وكان على رأسها الأستاذ المربي (حامد التوم العركي) الذي ما بخل على أحد جاءه

لاستلاف كتاب. وكان حريصاً على توثيق الاستلاف واستعادة الكتب في أوانها مستفيداً من جهود الذين وقفوا بجانبه كساعد أيمن ومنهم الحاج الخليفة، وعبد المنعم يوسف الخضر، وشوقي عباس الفكي علي، وسليمان فضل اله لاعب الهلال المرموق وغيرهم ممن نذروا أنفسهم للثقافة وحب المعرفة. أشاع هذا السلوك في مجالس النهود حباً متفرداً للمعرفة فتشرب الشباب والشيب بكتابات ابن خلدون، وشكسبير، وأدب اليونان، وأطروحات الثورة الفرنسية، ومؤلفات جواهر لال نهرو حول ثورة الهند، وأدب الثورة الذي واكب تحركات المهاتما غاندي منذ تحركه من مقر عمله بجنوب أفريقيا إلى حين عودته إلى موطنه بالهند، ثم انخراطه في حركة المؤتمر الهندي التي بدأت منذ القرن الماضي، وأشعار طاغور، وكتابات محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد رشيد رضا. وكان لأهل النهود شغف شديد عندما يلتقون في مجالسهم بالحديث عن البريطانيين والفرنسيين والألمان وهيمنتهم على بلاد القارة الأفريقية وإيقاعهم الأذى الشديد بالمسلمين في سومطرة، وجاوة، والهند، وإيران، ونيجريا وغيرها من بلاد الشرق الأوسط وبلاد المغرب وحركات المقاومة الوطنية في كل أنحاء القارة الأفريقية وغيرها من بقاع العالم. كان الجميع متابعين ومشاركين ومتحمسين

لصولات الجنود خلال الحرب العالمية الثانية 1939-1945م، حتى أن أحد الترزية واسمه أحمد البقي جاء يوماً إلى بيتهم بحي أبو سنون وكاد اللهيب يتفجر من ثناياه حتى ذهلت والدته (أمة بت طاهر) التي كانت تنتظره بالعشاء. وسألته مذعورةً مالك يا ولدي؟ فقال لها إنها خطيئة الحلفاء الذين ما كان لهم أن يقعوا في هذا الفخ الذي نصبه هتلر وطوقهم به موسوليني. ولو كنت مكان القيادة لقلبت هذه الاستراتيجية رأساً على عقب ولا نامت أعين الجبناء. دُهشت العجوز لأنها حسبت أن موسوليني واحد من أبناء حي الشايقية وهتلر أحد تجار سوق شلبي. وهكذا كانت مجالس النهود تضج بالحديث عن الدولة العثمانية في تركيا، والحركات التحررية في الشرق والغرب، والمستشرقين، ودورهم في إثارة العديد من القضايا الفلسفية والفكرية حول النهضة الإسلامية والثقافة العربية بصورة عامة. وما أفرزته حركة عرابي وعمر المختار وثوار الجزائر. ورغم أنَّ نادي السلام الذي تحدثنا عنه سابقاً والذي أنشأه أبناء النهود عام 1917م قد أسهم بشكل كبير في إذكاء هذه الجذوة السياسية والفكرية لدى أبناء المدينة إلا أنَّه لم يجد حظه لدى المؤرخين بالشكل الذي تحدثوا به عن نادي الخريجين بأم درمان الذي نشأ بعده بعامٍ كامل، وذلك لسببين أساسيين: أولهما أنَّ نادي

الخريجين هو نادي العاصمة القومية التي ضمت كل أبناء السودان بأعراقهم وسحناتهم المختلفة. وثانيهما أن رواد نادي الخريجين قد أصبحوا حملة مشاعل التغيير السياسي بالوطن الذي تلى مرحلة الصراع الفكري الحاد بين المثقفين والإدارة البريطانية، ومن داخله انبثقت الانتفاضات المتلاحقة التي كان لها ما بعدها في تاريخ السودان السياسي والوطني. أما نادي السلام وغيره من أندية الأقاليم فقد ظلمها بُعْدُها الجغرافي عن دخول هذا التاريخ الذي آلينا على أنفسنا أن نستعيد كتابته إحقاقاً للحقيقة المجردة من كل غرض. أسهم نادي السلام في تغذية مجالس النهود التي أسهمت بدورها في إثراء الوجدان الثقافي لكل أولئك الشباب الذين آلوا على أنفسهم أن يكونوا قادةً للعلم والثقافة والمعرفة في بلادنا وقد كانوا. وعلى تلك الأرضية أيضاً نشأ نادي الموردة بالنهود الذي أسهم في تأسيسه والدي (إبراهيم عوض) رحمه الله مع نفر من أصدقائه الذين شغلهم حب الثقافة والرياضة إلى أبعد الحدود. ثم توالى ظهور الأندية ومنها نادي حيدوب الذي سمي على أعرق التلال الرابضة في مدخل المدينة (جبل حيدوب)، ونادي (الوطن)، ونادي (الهلال)، ونادي (الشبيبة)، ونادي (النضال)، ثم نادي

(المريخ) الذي أنشأه لاحقاً المهندس الرياضي الراحل عبد الله حسين أحمد نور الشهير بالحاوي.

❄❄❄

ماذا دها السينما

يا وزراء ثقافة السودان؟

أي معتوه هذا الذي أقنع أهل السودان أن السينما قد تلاشت من الوجود؟ وأي ساذج هذا الذي أبدلهم بروائع الفن العالمي العظيم الذي يستمتع به كل أبناء الدنيا ما عدا نحن أفلاماً تافهة وساذجة ومتخلفة ورخيصة لا تعرف غير الضرب والسحل والنعيق

الفارغ؟ وأي منافق هذا الذي حطم روح الجمال والسمو الفكري والأدب الرفيع الذي غرسته فينا سينما النيل الأزرق طوال عمرها وسينما الخرطوم غرب أيام مجدها وسينما قاعة الصداقة حين كان النقاء والتجرد للفن حاديها الأساسي؟ ومن يا ترى هذا الهمام الذي جعلنا ننفر من السينما كما ننفر من الأسد؟ ومن هذا الذي أراد لهذا الفن البديع أن يغرق خلف ستار تغطية الجهل وتغليف نزعة التحرر الساذجة من معطيات ما يسمى بالغزو الفكري؟ حزين أنا حتى الثمالة، وحُقّ لي ولكل حادب على الذوق الرفيع أن يحزن وهو يرى ما آل إليه أمر السينما في بلادنا التي كانت في الزمان القديم رمزاً للتطور والنماء الثقافي ونبراساً لحركة التحرر جعلت من أهل السودان قادة للفكر والأدب والفنون الرفيعة في كل قارة أفريقيا. وكانت جامعة الخرطوم برمتها تسهر مع روائع سيدني بواتير، وألن ديلون، وشارلي شابلن، وعمر الشريف، وبرجريت باردو، وأليزابث تايلور، وإيدي ميرفي، وكيرك دوقلاس، ودايانا روس، وأنيتا بيكر، وجون ترافولتا، وعشرت المبدعين من ممثلين ومخرجين وكومبارس من أساطين هوليوود وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا ومصر. ومن خلالهم تعايش كل السودان مع قضية جميلة بوحيرد في ثورة الجزائر، وتعاطف كل الناس مع جميل راتب في القادسية، وتعشق

الجميع إبداعات الخيال المغري في روائع ألفريد هيتشكوك، وسما ذوق السابلة والسياسيين والطلاب وحتى العاطلين الذين أصبحوا الأوائل في محافل الأدب والفنون والعلم والثقافة. وبالمقابل نما ذوق ساستنا حتى أصبحوا قادة متفتحين بحكم تعايشهم مع شعوب الأرض قاطبةً، فقادوا دفة الحكم بالأمس وقبل الأمس وبعضهم لم يزل. وذلك ببساطة لأنهم قد تعلموا في ذلك الجو المعافى الذي لعبت فيه السينما دور الأسد، وكانت القاسم المشترك للتعليم والترفيه وتنمية الذوق الجميل. وكانت سينما النيل الأزرق على وجه الخصوص ذات القدح المعلى في هذا العطاء فأين هي الآن؟ لقد أصبحت أطلالاً سكنتها الغربان والوطاويط وسربلتها خيوط العنكبوت. ولما فتح الله عليها بالمنقذ انتشلها الجنود من تلك البراثن ولكنهم ما أعادوها لسابق عهدها البديع وإنما جعلوها إحدى الوحدات المضافة للثكنات العسكرية. وأحسب جازماً أن الوعي الفكري والسياسي والديني لا يقر جريمة مثل هذه في بلد يخطط لأن تكون عاصمته عاصمة للثقافة بعد عام وربع العام. أي أمة هذه التي تستبدل الفن والجمال والأدب بالنار والبارود والرصاص!؟ أليس من مكان آخر أنسب من دار السينما؟ إن الأمة التي تريد أن تبني ذاتها لا يجوز لها أن تنفصل عن مسيرة الحضارة البشرية

بكل مقوماتها مهما تكن الظروف. والأمة التي تصبو لأن تكون في ركاب الأمم الراقية لا تتشرنق في ستار الوهم الذي يغذيه نفر أو مجموعة لتحكم على الجمال كله بالفناء. لقد سمعت أحد المسئولين يوماً يتحدث عبر الراديو ويقول إن السينما قد ماتت في كل بقاع العالم بعد أن حل محلها التلفاز والإنترنت. وضربت كفاً بكف لسذاجة هذا الطرح المسطح. ولم أدر من أين استقى هذا الأخ معلوماته الفطيرة والمغلوطة والضحلة عن أمر لا يجوز له البت فيه بمجرد الرأي والمزاج الخاص وإنما بالحقائق والمعلومات الدقيقة حتى لا يصبح الحديث جزافاً ووبالاً على صاحبه في زمان المعلومة وأساليب الاتصال الحديثة. وأقول له إن السينما اليوم قد تطورت وتوسعت أكثر مما كانت في الماضي، بل وصارت أكثر التصاقاً بقضية الإنسان، وتفوقت على ذاتها ألف مرة لتثبت وجودها بين الوسائط التي ذكرتها. ولذلك تضاعف عدد دور السينما في كل بقاع العالم إلا السودان. وأصبحت مبانيها الحديثة تتوسط معظم المجمعات التجارية ومحطات السكك الحديدية والأسواق الكبيرة في عواصم العالم حتى شهد مجمع تجاري واحد في طوكيو بناء عشرين دار للسينما تم افتتاحها في يوم واحد. وقد شهدت السنوات الأخيرة بروز أفلام هي الأرقى والأعظم والأكثر

التصاقاً بهموم البشرية في عالم مزقته مرارات السياسة ونزيف الحروب وضيق الانتماء وسذاجة التحليل. واستمتع كل أبناء الأرض ما عدا نحن بروائع مثل سرافينا التي أبدع فيها فطاحلة السينما الأفريقية وعلى رأسهم مريام ماكيبا المغنية الأسطورية ليمتزج عطاؤها مع ليلتي كومالو ومومنقيني نيقما، وبطلة هوليوود الأسطورية ووبي قولدبيرج. وسهر أبناء البلاد المحظوظة مع إبداعات أرسينيو هول وإيدي ميرفي في (قادمون إلى أمريكا)، وتفاعل أهل الشرق والغرب إلا نحن مع أفلام: زوجة القسيس، وبوبا، وبيرل هاربر، واللون الأرجواني، ومالكولم إكس، والثورة الفرنسية، وتايتانيك، والمحبوب، وغيرها وغيرها مما جادت به أستديوهات العالم المتحضر. وتفجرت خلال سنوات التغييب السينمائي في السودان طاقات جديدة للعديد من الأسماء في مجالات التمثيل والإخراج والإنتاج مثل أوبرا وينفري، وداني قلفر، ودنزيل واشنطون، وجيم كيري، وفيل كولينز، وليوناردو ديكابريو، وكاتي وينسيل، وبيلي زاني، وغيرهم وغيرهم من أساطين السينما الحديثة. ولكننا لسوء الطالع قد حكم علينا أن نرزح تحت نير الاستعمار الهندي لأسوأ ما أنتجت كلكتا في تاريخها حتى أصبحت زيارة السينما ضرباً من ضروب العار للأسر المستنيرة، وأصبحت

وبالاً يتبرأ منه كل من لا يريد لذاته أن يلحق بها الأذى من تفاهة المطروح وتفادياً لأريج البنقو والسعوط الذي انسطلت منه حتى المقاعد المهترئة بدور السينما الحزينة التي غشاها جفاف الفكر وأقعدها عدم المهابة عن جذب أي إنسان ينأى بنفسه من سخرية البشر. فهل هذا يرضيكم يا مثقفي السودان وعلى رأسكم وزيران للثقافة وليس وزيراً واحداً!؟

❄❄❄

مع الرشيد في قصر الرشيد

الرشيد الطاهر بكر شخصية متفردة بين رجالات الفكر في السودان، وقد كان رحمه الله علماً بين أعلام العطاء الجزيل بين أقرانه وأبناء جيله الذين بدأوا يودعون هذه الفانية واحداً تلو الآخر. وكان الأمل أن تخلده أقلام الكاتبين والمؤرخين بعد رحيله الذي مرت عليه أعوام وأعوام ولكننا أمة كثيرة النسيان. وقد عمرت حياة السيد الرشيد الطاهر بكثير من الدأب على الوفاء والحكمة في تناول الأمور والتجرد ونكران الذات والخصوصية في انتقاء الأصدقاء. وكان الرجل إلى جانب علمه الغزير في مجال القانون الذي أوصله إلى منصب وزير العدل والنائب العام من أكثر الذين حملوا راية الحركة السياسية في السودان في أواخر الأربعينيات نضوجاً ودأباً وإخلاصاً للقضية. وكان الصراع محتدماً يومها بين

أروقة الأحزاب السياسية من أجل تحقيق الاستقلال. ورغماً عن ميوله اليسارية آنذاك فقد انخرط في حركة الشباب الإسلامي التي كان مجرد الانتماء إليها يمثل مخاطرة محفوفة بالمصاعب خوفاً من بطش الإنجليز وغضبة الشارع السياسي الذي سيطرت عليه طائفتا الختمية والأنصار اللتان تقاسمتا المنابر من أقصى البلاد إلى أدناها. وشهدت أروقة البرلمان للرشيد الطاهر بعد ذلك صولاتٍ وجولات شارك فيها بفكره وآرائه الثاقبة، مما خلده بين مفكري الرعيل الأول لحركة الشباب الاستقلالي. وانخرط بعد ذلك في الحركة القضائية فترك فيها بصماتٍ شهدت بها صحف القانون وسجلات المحاكم والسوابق القضائية بالسودان. وكانت تلك المثابرة والجدية في تناوله لشئون القضاء والقانون قد أقنعت الأستاذ محمد أحمد محجوب أن يسلمه مكتب المحاماة الشهير الذي أسسه بفكره وعرقه وجهده، حيث كان الرشيد الطاهر يومها شاباً في أولى درجات سلم المحاماة. حملتُ كل هذا التاريخ في خاطري وأنا أطرق باب غرفته بفندق قصر الرشيد ببغداد عندما دعاني للتجول معه في شوارع بغداد. كانت سيارة المارسيدس الأنيقة التابعة لمجلس الوزراء العراقي تقف في مقدمة صالة استقبال الفندق بانتظاره. وبمجرد أن تحركت السيارة قال لي السيد الرشيد الطاهر:

بالأمس أخذونا في زيارة مفاجئة إلى قصر الرئيس صدام حسين مع وفد وزراء العدل المشارك في مؤتمر وزراء العدل العرب، وقد تحدث إلينا الرجل حديثاً مستفيضاً عن القانون حتى حسبنا أنه القانوني الوحيد بيننا نحن أهل القانون. ضحكت من أعماقي وقلت له: لا بد أنَّ في هذا الأمر سراً حيث إنني سمعت مثل هذا التعليق من الدكتور حسن أحمد إبراهيم أستاذ التاريخ الذي يشارك في مؤتمر المؤرخين العرب وسمعته من الشاعر سوف عبيد الذي يشارك معنا في مهرجان الشعراء الشباب. وضحكنا كثيراً عندما شاركنا قائد السيارة حيث بدت أمامنا في تلك اللحظة على أحد الحوائط صورة ضخمة للرئيس صدام حسين يحمل طفلاً صغيراً بين يديه وكانت مثل هذه الصور تملأ شوارع المدن العراقية قبل الغزو الأمريكي فقال السائق: حقيقةً إنَّ سيادة الرئيس رجل كل المواقف وإذا رأيته مع أطفال العراق تحسبه الطفل الوحيد بينهم. فضحكنا بصوت عالٍ مع السيد الرشيد الطاهر حتى انزعج قائد السيارة الذي أحس بأن فهماً آخر قد وقع لنا من كلامه. واستمرت جولتنا التي كان معظمها بشارع السعدون الأنيق في وسط بغداد. كان الأنس مع السيد الرشيد الطاهر عذباً كما الشهد المصفى. وفجأة رأينا أمامنا أحد المساجد فدخلنا لنصلي، وكانت جموع

المصلين قد بدأت مغادرة المسجد لأننا وصلنا بعد انتهاء الصلاة. وبقي نفر قليل من الناس داخل المسجد بعضهم مُتكئون على الأعمدة والحوائط والبعض يقرأ آيات الذكر الحكيم من المصاحف الموضوعة بعناية في الدواليب الصغيرة. وقدمته ليصلي بي إماماً. وما أن أقمنا الصلاة حتى وضع أحد الشيوخ الجالسين بالمسجد حجرين صغيرين أحدهما أمام السيد الرشيد والآخر أمامي لنسجد عليهما. وعندما هممنا بالسجود أبعدنا تلك الحجارة بعصبية واضحة كأننا اتفقنا عليها، وسجدنا على السجاد المفروش بدلاً منها. وبقي ذلك الرجل غاضباً ينظر إلينا طوال الصلاة، وبعد أن انتهينا واجهنا بصرامة وغضب ولهجة العتاب تسبق كلماته: كيف تلقون بهذه الحجارة بهذا الشكل وهي من النجف الأشرف؟ وهل تحسبون أن صلاتكم هذه تجوز بمثل هذا السلوك؟ فقال له السيد الرشيد: إن صلاتنا هذه لن تصح إلا بهذا الأسلوب الذي تعاملنا به مع هذه الحجارة. وثق أننا لو سجدنا على حجارتك هذه لما قامت للدين في نفوسنا قائمة. واشتاط الرجل غضباً فتركناه في حاله وخرجنا من المسجد قاصدين دار الكتب. قال لي السيد الرشيد عند الخروج: إن هؤلاء المتنطعين قد ضيعوا سماحة الدين في نفوسهم وأرادوا أن يضيعوه على الآخرين، وهم بهذا أشد خطورة على

الإسلام من أعدائه التقليديين بحكم إصرارهم على مثل هذه القشور والأشياء الغريبة بدعوى أنها الحق ولا إسلام سواها. وقلت له: إن فاجعة المسلمين تكمن في تقسمهم شيعاً وطوائف وأحزاباً ليتناحروا فيما بينهم أكثر مما يتناحرون مع غيرهم ممن رفعوا عصا القتال ضد الإسلام برمته. بعد ذلك دخلنا على مكتبة دار الكتب وتجولنا حول أروقتها العديدة التي حوت العديد من أمهات المراجع. وسألتُ البائعين عن كتابٍ كان قد أوصاني به الصديق الصحفي سامي سالم لأحضره له من بغداد وهو كتاب (ملحمة جلجامش)، فأخبرني البائعون أنه قد مُنع من التداول، ومن الأفضل ألا أسأل عنه. ولم أجد سبباً مقنعاً لمثل هذا المنع غير مأساة عالمنا العربي الذي فصل القوانين والأحكام حسب مقاسات الزعامات السياسية دون مراعاة لقيمة الفكر وحرية الآخرين. وأثناء تجوالنا بالمكتبة لاحظتُ أنَّ السيد الرشيد قد اشترى عدداً ضخماً من المراجع والمجلدات ما حسبتُ أن أحداً يفكر في اقتنائها في يومٍ واحد. وبعد ذلك تناول كتاباً أنيقاً وقدمه لي قائلاً: خُذ يا عوض هذا الكتاب هديةً مني وهو مرجع أساسي يجب ألا تخلو منه مكتبة أحد من طلاب العلم والمعرفة، وقلت له: شكراً لك على هذه الهدية القيمة ولكنَّ هذا الكتاب موجود بمكتبتي. قال لي: لا بأس، فلتستبدله بكتاب آخر

يكون هدية مني إليك. واستوقفني كتاب صغير بعنوان (الحلاج وُضوء الدم) للكاتب (ميشيل غريب). واشتراه السيد الرشيد هدية لي مع مجموعةٍ من الأقلام وفتاحات الكُتُب التي بقيت ذكرى طيبةً وخالدة على مر الأيام من رجل خلد نفسه في خريطة العطاء الإنساني بالسودان على مر السنين.

❄❄❄

في بلاد الأقزام

عزيزي القارئ، أولاً لا بد لي أن أعتذر عن احتجاب هذا العمود في الأسبوع الماضي والذي كان احتجاباً فرضته عليَّ ظروف السفر خارج أرض الوطن، وبقدر ما كان حرصي على عدم التأخر على القارئ العزيز إلا أن ظروف الرحلة وملابسات العودة ومتابعة نتائج الرحلة كانت قد فرضت الكثير من الانشغال، إلا أن الخيال قد شحذ الخيال وراودني إحساس جارف بأن يكون هذا السفر نفسه هو موضوع هذا العمود لبضعة أسابيع قادمة لأن الرحلة بحق تستحق الكتابة عنها. والسفر كما هو معلوم في حد ذاته قضية ومدرسة وتجربة يعلم الجميع أنها تعطي الإنسان أبعاداً من المعرفة والفائدة والتغيير والغوص في أعماق المجهول، كيف لا والرحلة كانت لأدغال أفريقيا؟ ثم أن الصحبة التي وجدتها طوال أيام السفر فرضت عليَّ أن أحكي عنها ولو النذر اليسير. ولعل أبلغ من صور أمر الأسفار في تاريخنا القديم هو الإمام الشافعي رضي الله عنه عندما قال في بيته المشهور سافر ففي الأسفار

خمسُ فوائدِ، تفرج همٍ، واكتسابُ معيشةٍ، وعلمٌ وآدابٌ، وصُحبةُ ماجدِ. وأنا أريد أن أركز على هذه الأخيرة لأنني عايشت نفراً رائعين من أبناء السودان خلال هذه الرحلة التي شملت أفريقيا الوسطى وتشاد وإثيوبيا والكميرون التي فرضت نفسها بمحض الصدفة. حقيقة لا أجد عبارات تعبر عن جمال أبناء السودان في العاصمة بانقي التي عرفها أهل السودان وقطنوها منذ عشرات السنين حتى أصبحوا جاليةً عريضة ونشطة في التجارة لا سيما تجارة الحدود ونقل البضائع بين السودان وقلب أفريقيا العميق وسط الأدغال. كان الوصول إلى مطار العاصمة بانقي في يوم الأحد الحادي عشر من سبتمبر 2005م وفوجئت بأن سفارة السودان وجامعة بانقي قد أعدا استقبالاً رائعاً وبديعاً ما كنت أتصوره بأرض المطار شارك فيه الرجل الوفي والعالم الجليل سعادة سفير السودان بأفريقيا الوسطى بروفيسور حسن سيد سليمان الذي عرفته محاور الدبلوماسية السودانية كواحد من الكتاب المرموقين والعلماء في مجال الفكر الدبلوماسي والسياسي. ولا ينس أبناء السودان بصماته الواضحة حينما انخرط في كوكبة المنتمين للمركز الدبلوماسي التابع لوزارة الخارجية والذي تخرج فيه على يديه العشرات من شباب السودان الطامحين لآفاق المعرفة والعلم. ووجدت إلى جانبه

سعادة نائب مدير جامعة بانقي الدكتور جوشيم قوليمبي Dr. Joachim Guelembi وسعادة نائب مدير إدارة التعاون الدولي بجامعة بانقي بحكم أن المهمة التي سافرت فيها كانت مهمة رسمية كمبعوث من جامعة أفريقيا العالمية لتقديم الدعوة لمدير جامعة بانقي لحضور ملتقى الجامعات الأفريقية الذي تنظمه جامعة أفريقيا بالتعاون مع الجامعات السودانية الأخرى في شهر يناير المقبل كواحدة من فعاليات مؤتمر القمة الأفريقي الذي ستحتضنه الخرطوم مابين الحادي والعشرين والثالث والعشرين من يناير 2006م. وكان ضمن كوكبة من وجدتهم بالمطار أيضاً سعادة قنصل السودان بأفريقيا الوسطى الأستاذ جون أنطون، والسيد محمد أحمد عبد الله مستشار السفارة، والسيد خالد عمر محمود السكرتير الإداري للسفارة، والسيد جعفر مصطفى وعدد من أبناء الجالية الأوفياء. وفي طريقنا من المطار تجولت ببصري في كل أنحاء المدينة الخضراء التي امتزجت طبيعتها ببساطة أبناء القارة الذين عانوا ويلات الاستعمار الفرنسي لعقودٍ طويلة انغرست في لحم الإنسان ونخرت في عظامه. ولم يتبق من صلف آل البوربون إلا بعض الملامح العمرانية التي برزت في قصر الرئاسة ومباني الوزارات العتيقة على الشارع المؤدي لنهر الأوبانجي. ووسط هذه الحشود

من المناضلين من أبناء المدينة وصلت سيارة السفارة الأنيقة إلى فندق أوبانقي Obangui Hotel على ضفة نهر الأوبانجي وهو أكبر فندق في الدولة ويطل على زائير التي تغير اسمها للكنغو الديموقراطية. كان أهل الكنغو على مرمى حجر مني وأنا أطل من شرفة الفندق الأنيق الذي برعت أيدي المعماريين في تشييده وسط التلال والصخور العالية والأشجار الباسقة التي أضفت عليه رونقاً ينكأ في الإنسان جراحاً أدمت أبناء القارة عبر الزمن بدءاً بثورة الماماو في أدغال الجنوب الأفريقيى ومروراً بالدماء التي سالت على الوادي الكبير في كاتنقا، وزحفاً إلى تمرد الجنرال أوجوكو في بيافرا بنيجريا، ووصولاً إلى القضبان التي قبع في داخلها باتريس لومبا وبعده نيلسون مانديلا. كل هذا الشريط النضالي الطويل طاف بخاطري وأنا أجلس على ضفة نهر الأوبانجي أغازل أشكالاً من الطيور التي شاء لها القدر أن تحلق في سماء هذه البقاع المجهولة من العالم. ومن حولي المراكب الصغيرة التي تواصل ليلها بنهارها حاملةً الكادحين بين الكنغو وأفريقيا الوسطى. ووسط هذا الفرح الممزوج بالتأمل في سنوات التاريخ البعيد طرق باب غرفة الفندق الصديق الدبلوماسي النشط جون أنطون قنصل السودان بأفريقيا الوسطى وكنت محتاجاً بالفعل لمجيئه في تلك

اللحظة لأن الكثير من الأسئلة كانت تدور برأسي عن أدغال أفريقيا الوسطى وبلاد الأقزام التي تقع في أقصى جنوبها. وحدث جون كثيراً عنها لأنه ظل زبوناً دائم الترحال إلى تلك البقاع القصية في أعماق الأحراش. وأكدت له أن رحلتي هذه لن تكون ذات جدوى ما لم يأخذني إلى بلاد الأقزام. وأخيراً اتفقنا أن يطرح هذا الموضوع لسعادة وزير الداخلية ثم يخبرني بالنتيجة. بعد قليل زارني بالفندق السيد محمد أحمد عبد الله مستشار السفارة بمعية الأستاذ خالد عمر محمود السكرتير الإداري وتسلمت منهما جدول التحرك الذي أعدته جامعة بانقي بالتنسيق مع السفارة. وعَيَّنَتْ الجامعة والسفارة مترجماً لي هو الأستاذ موسس جون بحكم أن الدولة كلها لا تتكلم غير الفرنسية واللغة المحلية التي كادت أن تضيع وسط الاستخدام المكثف للغة الفرنسية. وحمدت الله أن الأستاذ موسس الذي نزح قبل سنوات طويلة إلى يوغندا جاء إلى أفريقيا الوسطى ليتعلم الفرنسية على أصولها فصار مجيداً لها وللإنجليزية والعربية على السواء. وقد حاز على الجنسية اليوغندية رغم أنه من أب سوداني ينتمي لقبيلة الزاندي وقد رافقني طوال الرحلة فكان نعم المعين. في المساء غادرتُ الفندق للصلاة بالمسجد الكبير ببانقي وذلك بدعوة نقلها إلي أعضاء لجنة مسلمي

أفريقيا من إمام المسجد الذي طلب مقابلتي. وقد مكثنا ساعة في منزله الملحق بالمسجد وتحدثنا كثيراً عن وضع المسلمين في أفريقيا الوسطى ودور لجنة مسلمي أفريقيا التي يقف على رأسها نفر كريم من أبناء السودان ثم دور جامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم التي علمت لهم الكثير من أبنائهم، ودار حديث طويل عن ملتقى الجامعات الألإريقية الذي جئت بغرض الدعوة إليه. كان معنا طوال هذه الرحلة الأخ العزيز الأستاذ مختار رئيس لجنة مسلمي أفريقيا وأعضاء لجنته النشطين والسيد الملحق العسكري السوداني ببانقي. أشرقت شمس الإثنين الثاني عشر من سبتمبر ووجدت أمامي المستشار النشط محمد أحمد عبد الله الفكي الذي حملني على سيارته الأنيقة وسط شوارع بانقي وظل طوال الرحلة يحدثني عن شكل العلاقات بين السودان وهذه البلاد الجارة. وعلمت منه أن سفارة السودان هي أول سفارة تنشأ بالدولة على الإطلاق بعد استقلالها. وكان لهذه المعلومة وقعها الرائع في نفسي لأنها تعني تأثير السودان القوي على دول القارة والذي له دلالاته وما بعده. ووصلنا إلى حرم جامعة بانقي وهي الجامعة الوحيدة في الدولة وتتمركز كل كلياتها بالعاصمة بانقي. ووجدنا الجميع بانتظارنا لأننا كنا على موعد مع سعادة مدير الجامعة الدكتور

فوستان توديري Faustin Toadera. وجدت أيضاً بانتظارنا بمدخل الإدارة سيادة نائب مدير الجامعة الدكتور جوشيم قوليمبي Dr. Joachin Guelembi الذي كان في استقبالنا بالمطار. كان ترحيب إدارة الجامعة حاراً وحميمياً بكل المقاييس مما ساعدني كثيراً على طرح المهمة وتقديم الدعوة المكتوبة من السيد مدير جامعة أفريقيا العالمية بروفيسور عمر السماني الشيخ إلى سيادته بغرض المشاركة في الملتقى، ودعوة فريق كرة القدم ورياضيي المارثون للمشاركة في فعاليات الملتقى فضلاً عن دعوة المفكرين والكتاب للمشاركة بأبحاثهم. وبعد أن رحب مدير الجامعة بالدعوة وصفها بأنها سخيةٌ وكريمة من السودان وفي غاية الأهمية له شخصياً ولجامعة بانقي. بعد ذلك أبلغني بأن السيد وزير التعليم الوطني تيمليون مبايكوا Timoleon Mbaikoua يرغب في استقبالي بمكتبه، وعلى الفور عرجنا على مكتب سيادته الذي لا يبعد كثيراً عن الجامعة. وعند وصولنا فوجئت بأن سيادته قد أناب السيد وزير الدولة أورليان سيمبليز زينقاس Orlian Simbleez Zingas لاستقبالنا بحكم أنه قد استدعي لاجتماع طارئ بمجلس الوزراء. ووجدت معه رئيس إدارة التعليم العالي بالوزارة. وبعد أن وقف على كل تفاصيل الزيارة طلب مني أن أعقد مؤتمراً صحفياً بأحد الفنادق لكي تقف

أجهزة الإعلام على دعوة السودان لهم وإلقاء الضوء على جامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم وعلى أهداف ومرامي ملتقى الجامعات الأفريقية المرتقب. وأحسست حينها بمدى الأهمية التي يضعها أشقاؤنا الأفارقة للسودان، ثم فاجأني بأن لديهم اثنين من الفنانين البارعين في عمل البورتريهات والأعمال اليدوية والتي يتم إنجازها حيةً أمام الجمهور وأن هذين الفنانين سيكونان ضمن وفد أفريقيا الوسطى المشارك بملتقى الجامعات. وسعدت بهذه المبادرة السخية لاسيما وأنني قد وقفت على براعة أهل أفريقيا الوسطى في مجال الفنون اليدوية قاطبة بدءاً بالرسم وانتهاءاً بالنحت وصناعة الخزف. وبقيت ساعة من زمان مع سعادة الوزير أورليان سيمبليز أمطرني فيها بحديثه العذب عن السودان وأهل السودان وكيف أنهم يعولون كثيراً على هذه الدولة الجارة الشقيقة في مد يد المساعدة لهم لاسيما في مجال تعليم أبنائهم بحكم أنهم لا يملكون غير جامعة واحدة وعدد قليل من المدارس الثانوية في حين ينعم السودان بأكثر من ثلاثين جامعة ومثلها من الكليات العلمية المتخصصة والمعاهد والمؤسسات التعليمية الأجنبية. وحينها سرحت بالخاطر بعيداً في ربوع وطني الذي يذخر بالكثير المثير الذي لا نحس به نحن أبناء السودان. وحينها انتابني شعور بالفخر الشديد الذي غمرني من قمة

رأسي إلى أخمص قدمي، وقلت في نفسي لماذا قعدنا كل هذه الأعوام عن الانفتاح على أفريقيا ونحن فيها السابقون سواء في نيل الاستقلال أو في تطوير التعليم أو في تطور الإعلام أوفي الممارسة الديموقراطية أو في حرية الصحافة. وأضفت لخيالي دعوة اصطنعتها من نفسي وهي أن أدعو كل سوداني غير راضٍ عن حالنا أن يقوم بجولة في دول القارة الأفريقية لاسيما الفقيرة منها ليعرف ما نحن فيه من نعيم ورغد عيش وهناء. ولا اظنني مبالغاً في ذلك فقط عليكم بالتجربة. وعدت سعادة الوزير بأن أنقل رغبته لمنظمي ملتقى الجامعات الأفريقية بالسودان وقد فعلت بمجرد عودتي، وها أنذا أعيد الأمر من خلال هذه المساحة الصحفية إلى كل المسئولين وأقول لهم لقد آن الأوان وحانت ساعة الصفر ليلعب السودان دوراً أكثر جدية في نهضة قارة أفريقيا. وأنا حينما أقول هذا أدرك تمام الإدراك أن القائمين على أمر التعليم والاقتصاد والفكر بل والسياسة في بلادنا يعلمون علم اليقين حجم الحاجة التي يعيشها جيراننا الأفارقة بلا استثناء لنا، ونحن حقاً أهل لذلك وقادرون عليه فهل نحن فاعلون؟

في أمسية الثلاثاء الثالث عشر من سبتمبر وبالتحديد عند الساعة الرابعة مساءاً كنا على موعد مع الحظ حيث نظمت لنا

جامعة بانقي وسفارة السودان واللجنة الرياضية بالنادي السوداني مباراة لكرة القدم باستاد بوقاندا Boganda في وسط المدينة. وكان الفريقان المتنافسان هما فريق جامعة بانقي الذي سيحضر للسودان للمشاركة في الملتقى وفريق الجالية السودانية الذي كان أقوى مما تصورناه. وحضر المباراة نائب مدير الجامعة والسيد سفير السودان البروفيسور حسن سيد سليمان. وقُدِّم في ختامها درعٌ أعدته السفارة للفريق الفائز باسم الراحل الدكتور جون قرنق تكريماً لذكراه. وقد أُهْدِيَ الدرعُ لفريق الجامعة مع مبلغ معتبر من المال. وبعد ذلك قدم لنا أفراد الجالية أوسمةً ووشاحات تقديرية. وكانت فرصة طيبة لنا للوقوف على المستوى الرياضي المشرف للاعبين الشباب من أبناء أفريقيا الوسطى مما أحسب أنه سيثري منافسات الشبيبة الأفريقية عندما يلتقون في الخرطوم. أما اليوم التالي فقد كان يوماً مشهوداً بحق حيث ذهبت مع السيد القنصل جون أنطون للقاء السيد وزير الداخلية والحكومات المحلية ميشيل سالي Michel Salle وهو الوزير المسلم الوحيد في حكومة أفريقيا الوسطى، واستمع الوزير لشرح طويل عن فحوى زيارتنا وطبيعة دعوتنا لهم للحضور للسودان وما يرجى منهم من مشاركة سيكون لها ما بعدها. وبعد حديثه وثنائه على الدعوة والملتقى ومبادرة السودان أضاف سعادته

أن جامعة أفريقيا بالخرطوم قد ظلت تلعب دوراً تاريخياً مهماً في بلاده من خلال خريجيها الذين برزوا في العمل العام بجميع أركان الدولة. وقد أشار ضمن ذلك إلى التطور الذي طرأ على بلاده أفريقيا الوسطى والذي أسهم في جزء كبيرٍ منه خريجو جامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم. ولم تسعني الفرحة بما سمعتُ عن الجامعة التي أعملُ بها وشكرته بحرارة قبل أن أعود إلى مبنى سفارتنا لأجد سعادة السفير الذي كان أكثر سعادةً بنجاح الرحلة خصوصاً وأنه ما زال جديداً على الدولة التي تسلم عمله فيها قبل أسابيع قليلة فقط. وكان من أجمل البرامج التي وضعت لنا خلال تلك الزيارة برنامج زيارة الغابات التي تحوي كثيراً من الجمال وما يبتهج له الإنسان. وكان في مرافقتنا في هذه الرحلة البديعة سعادة سعادة السفير وسعادة القنصل وسعادة رئيس لجنة مسلمي أفريقيا السيد مختار، حيثُ قضينا يوماً حافلاً بإقليم لوباي الذي لم يحو الغابات فقط وإنما مكننا من التعرف على بلاد الأقزام الذين يعيشون وسط الغابات الكثيفة. وما كان لنا أن نزور تلك البقاع الممنوعة إلا بفضل وزير الداخلية الذي كتب لنا بكل السخاء خطاباً هو بمثابة الإذن والتصريح لدخول تلك الأماكن. وقد حملناه معنا طوال التجوال في الأماكن التي لا يُسمح بدخولها لأي فرد

خصوصاً لو كان أجنبياً. وكان سيادة الوزير قد أصدر قراراً بأن يكون مرافقنا في هذه الرحلة السيد جوناثان أمبايكي Jonathan Ambaike مساعد المحافظ لمنطقة لوباي. وبالفعل ذهبنا إليه في مدينة زنقو ورافقنا إلى الأحراش، وآليتُ نفسي ألا أتعامل بحس الإعلامي مع بلاد الأقزام بل أكتفي بالمتعة لنفسي وها أنذا أفي بما وعدت.

❄❄❄

في عيد الصحافة المئوي

التحية والتجلة والتقدير للصحافة السودانية وهي تكمل عامها المائة بحكم بدايتها التي كانت في عام 1903م بصحيفة السودان التي أصدرها لورد كرومر حاكم عام

السودان آنذاك. ورغم أن لدي الكثير من التحفظ على هذه البداية عام 1903م لتكون تأريخاً لصحافتنا السودانية إلا أنني طربت لمجرد الاهتمام والاحتفال بحدث عظيم كهذا. وفي حقيقة الأمر كان مصدر تحفظي على هذا التاريخ هو أنني ظللت أطالب بأن نؤرخ لصحافتنا الوطنية بصحيفة حضارة السودان التي صدرت عام 1919م بحكم أنها مرحلة الصحافة السودانية الحقيقية. وذلك لأن كل المرحلة التي سبقت ذلك منذ دخول البريطانيين للسودان عام 1898م قد شهدت صدور صحف أجنبية في كل شيء، بدءاً بالملكية والتمويل وانتهاء بالقراء. ولم يكن متاحاً لأي سوداني مهما كان شأنه أن يطلع مجرد الاطلاع على هذه الصحف، ناهيك عن الكتابة فيها. وظل هذا الأمر إلى عام 1911م حيث ظهر مقال الأستاذ حسين شريف الأب الأول للصحافة السودانية حيث حرّض فيه الشباب الوطني على إنشاء نادي للمثقفين. وهو المقال الأول الذي صدر لكاتب سوداني بتلك الصحف المملوكة للأجانب وقد أفضي في نهاية المطاف ضمن عوامل أخرى عديدة إلى إنشاء نادي الخريجين في عام 1918م. وعلى كل حال لا نملك

في مثل هذا العيد إلا أن نهنئ أنفسنا دون الركون إلى المجادلات. ولكن ثارت في نفسي ذكريات قضية هامة تعلقت بصحافتنا السودانية وهي قضية التأميم التي اتهم فيها العديدون جعفر نميري حيث قام بتأميم كل الصحف وشرد الصحفيين. وما أود قوله هنا أن فكرة التأميم لم تكن فكرة نميري ولا نظامه وإنما كانت قد نبعت من قادة حكومة 17 نوفمبر بقيادة الفريق إبراهيم عبود. وكانت القصة قد بدأت عندما قام رئيس وزراء سيلان المستر بندرانايكا بإصدار قرار مثير للجدل أمم بموجبه كل الصحف في بلاده بحكم توجهاته الاشتراكية الموغلة في يساريتها. وضجت وسائل الإعلام العالمية وعلى رأسها الصحف في مختلف دول العالم منددةً بذلك القرار. وكان السودان من ضمن أولئك المنددين. إلا أنَّ رجال حكومة 17 نوفمبر بدءاً بالفريق إبراهيم عبود ومروراً بالسيد طلعت فريد وغيرهم من أعضاء المجلس العسكري الآخرين قد استهوتهم تصرفات السيد بندرانايكا بتأميم الصحافة وقرروا أن يطبقوها بحذافيرها على الصحافة السودانية. وحزمت الحكومة أمرها على المضيّ في برنامجها المخطط للتأميم،

وبحثت عن المبررات التي تقنع الشعب. وحاولت الحكومة أن تستميل بعض المثقفين والعلماء إلى ذلك الأمر فاقترحت أن يعلن أن التأميم سيكون وسيلةً مجدية ونافعة في تقويم اللغة العربية بالسودان التي كانت محتاجةً بالفعل إلى تقويم. ومن الناس الذين تولوا ذلك الأمر بشكل مكثف الدكتور محمد إبراهيم الشوش. وأيده الدكتور عبد الله الطيب. وقد واجهه بالانتقاد ابن أخيه الدكتور مدثر عبد الرحيم الذي كتب مقالات عديدة منتقداً ومعاتباً الدولة على تلك الرغبة التي ستضر بالصحافة وبالحريات ولا تعني إلا مزيداً من القيود وتكميم الأفواه بدعوى الإصلاح والتقدم. وتحدث الدكتور مدثر إلى عمه الدكتور عبد الله الطيب مبدياً مخالفته لوجهة نظره المؤيدة لتأميم الصحافة بدعوى أنه سيفضي إلى تقويم اللغة العربية. وهنا اشتاط البروفيسور عبد الله الطيب غضباً على تلميذه مدثر الذي ما توقعه ينتقد آراءه على أعمدة الصحف بحكم أنه أستاذه وعمه في نفس الوقت. في نهاية المطاف اتخذت الحكومة قراراً بعدم المواصلة في أمر التأميم ما دامت له كل تلك السلبيات وأنه قد يفتح عليها النيران من جبهات عديدة هي

في غنى عنها. ولكن بعد سنوات جاءت حكومة مايو وفعلت ما اختشى منه الآخرون.

❄❄❄

كابلي يجدد وضوء المديح

لست أدري أي قدر جميل هو الذي أتاح لي كل هذا الطرب والمهابة والتبتل وأنا أنصت خاشعاً بالأمس لصوت عملاق الطرب المسكون بالمهابة عبد الكريم الكابلي وهو يمدح المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بعمل جديد صاغه شيخنا

الوقور المبدع عبد الرحيم البرعي بعنوان جدد وضوكا. لقد ظللت خلال الأسابيع الماضيات أنتظر هذا العمل لأن كابلي قد أخبرني عندما كنت أتجاذب معه أطراف الأنس الجميل ومعنا نجله الصديق محمد في إحدى صالات مطار الخرطوم ونحن عائدين من قاهرة المعز بعد حضور حفل تكريمه خلال مهرجان الإذاعة والتلفزيون التاسع. وانتظرت خروج هذا العمل الذي شوقني إليه الكابلي عندما تحدث عن الروح التي أملت عليه اختياره من بين المئات من قصائد مدح الرسول الكريم. وبالأمس قادتني المقادير لأقضي الليل بأكمله وأنا أستعيد هذا الجمال العذب المصفى الذي ما تصورته بكل هذه الرصانة وكل هذا الإبداع. ولكنه الكابلي الذي أشهد أنه قد سكب روحاً ودماً وحياة غيرت ملامح هذا العمل الذي سربله الوقار ولازمته السكينة وتغشاه الجلال من البداية حتى النهاية. لقد كانت به ليلتنا إحدى ليالي شهرزاد التي أهدت لعالمنا رصيداً جديداً من الطرب لا أشك أنه سيملأ أيامنا القادمات جمالاً فوق حدود الخيال. ولست أدري كيف استطاع الموسيقار الدكتور بابكر الصديق سليمان أن يسكب كل هذا الطرب المسكون بمزامير الجن من خلال توزيعه الذي لا أسميه إلا السهل الممتنع في هذا العمل العجيب. وتناثرت عقود الترجي للمجهول عندما لعبت أنامل

الموسيقار الدكتور الفاتح حسين وهو يستنطق الجيتار في هذه القصيدة ليتوالف مع سحر الكورال المكون من آمال النور وعثمان العامري والنور عثمان وعبد الخالق عبد الله الذين كانوا دراويشاً حقيقيين من خلف الكابلي وهم يحملون عبئاً لا أخال أنه كان سهلاً في هذا المقام. وبالصراحة كلها لم أتمالك نفسي وأنا أتابع هذه الكوكبة الرائعة. لقد بالغ عبد الكريم الكابلي في استنطاق العود وهو يؤدي لزمات هذا العمل، وبالغ في تلوين نغمات الحروف التي جاءت درراً وقلائد من ياقوت التبتل في محراب القداسة المحمدية. ولست أدري بصراحة كم من الوقت استغرقه هؤلاء المبدعون في وضع بروفات هذا العمل المدهش؟ وكم حاسة طوعوها لتتخطى طبيعة الحواس الخمس كي تسهم في صقل هذا النسيج الذي ظللت أستنصره طوال الليل كي يعطي المزيد. ولم يبخل القدر الذي جعل من هذا العطاء هدية حسبت أنها الأعظم ونحن نتنسم عبير الوئام الذي بدأ يفوح على الأرجاء في بلادنا فألاً وجمالاً لمقبل الأيام. والشيء اللافت للانتباه في هذا العمل هو النمط الجديد في توزيع الموسيقي التي طوعها الدكتور بابكر الصديق. وفي الحقيقة أقولها بكل الصدق أنه قد تفوق على ذاته، وأضاف للكابلي الذي ما كنت أحسب أن أحداً سيضيف إليه بعد هذا الرتل من العقود الرائعات

المترعات بالعطاء الندي الذي سكبه على موائد الطرب على مر السنين. والشكر أجزله لصديقي العزيز عمر الجزلي الذي ضمخ هذا الجمال بنبرات صوته المتفرد الذي أحسب أنه قد ذاب وجداً هو الآخر وهو يرتل آيات النشيد ليضفي على هذا الجمال ألقاً إضافياً سيخلده في رصيد الجمال والمودة والسلام الذي أطل على سماء بلادنا.

❄❄❄

بين أطلال بابل

مدينة بابل من أعرق مدن العالم وأغناها بالتراث التاريخي الذي حوى أضخم مقتنيات العراقيين التي تعود إلى عصور مختلفة خصوصاً ما تعلق بالسومريين والأشوريين ومسلة حمورابي الشهيرة التي حوت أول قوانين مكتوبة عرفها الإنسان منذ عام 1800 قبل الميلاد. وكان العراقيون يشعرون من خلال هذا التراث أن لهم الريادة والفضل في قياد العالم إذا أخلص قادتهم النية وقدموا

نموذجهم الحضاري للعالم. وقد تملكهم الإحساس على مر العصور بأنهم سيملكون الدنيا بإرثهم الثقافي وتراثهم التليد وتجاربهم الحضارية التي لم ينافسهم فيها شعب من شعوبِ الأرض. ولم يكن ذلك الحلم مستحيلاً ما دام الإنسان ابن حضارته، ولكن هيهات، فقد تجاذبت العراق أهواء السياسة، وظلمته مقادير الإحن التي توالت على مر العقود فكان ما كان من دمار الموروث الثقافي وسرقة المقتنيات التي لا تقدر بثمن. ذكرت كل هذا وأنا أراجع وريقاتي القديمة التي رأيت بين سطورها برنامجاً أنيقاً على ورق مصقول لبرنامج ثقافي امتد لأسبوع كامل في مدينة دار السلام التي أصبحت أطلالا بعد احتلال العراق. ووقفت من بين السطور التي سجلتها للذكرى على وقائع إحدى جلسات ذلك المهرجان الثقافي النضر الذي ضم العديد من الأدباء والشعراء من شتى بقاع الدنيا. وشارك فيه ستون شاعراً بالعداد والكمال من أصل مائتي أديب وإعلامي وصلوا إلى بغداد للمشاركة في تلك الليالي التي تلقفتها أمواج الأثير ساعة بساعة. واستوقفت ذاكرتي واحدة من تلك الليالي كانت في تقديري هي الأهم بين الفعاليات وهي ليلة الدراسات النقدية التي دارت حول ثلاثة محاور أدبية هي: القصيدة العربية المعاصرة بين الكلاسيكية والتحديث، وإشكالية الأدب

الملتزم، والحوار بين الأجيال. وقد شارك فيها بالنقاش الحر الأديب رجاء النقاش، والأستاذ الناقد د. جابر عصفور، والكاتب د. عبد القادر القط، والأستاذ محمد المديني. تذكرتها وجالت بالخاطر ذكريات تلك الأيام. وتساءلت عما سيكون عليه حال الأدب في عهد أبناء العم سام. وتذكرت ليلة العروض الفنية التي قدمتها فرقة الفنون الشعبية العراقية، وعرض الأزياء الذي أقامته فنانات العراق في دار الأزياء بقلب بغداد. وتذكرت الليلة التي أعقبت ذلك وشارك فيها شعراء من غير العرب، حيث رأيت لأول مرة في حياتي الشاعر البريطاني الشهير روجر هاردي وهو يلقي الشعر وبجانبه الشاعر ديفيد جونز والشاعر الدكتور زاهر بيشاي. وأطل من بعدهم الشاعر الإسباني الكبير أنطونيو غالا وبيدرو مونباتن. بعد ذلك خرجنا كمجموعة من المشاركين من الإعلاميين والأدباء وزرنا نصب الشهيد في أحد الأحياء التاريخية ببغداد. وعند وصولنا إلى المكان استوقفني مشهد المبنى الفاره الكبير الذي برعت في تشييده يد المهندسين العراقيين حتى أصبح إحدى التحف المعمارية الرائعة في مدينة بغداد الزاخرة بفنون المعمار العربي والإسلامي بلمساته المميزة. وأيقنت أن تلك الأيام لن تعود بل ستبقى في سجل الذكريات.

❄❄❄

سينما كركاب

سينما كركاب ظلت هي السلوى العزيزة والوحيدة لشباب مدينة النهود على مدى سنوات عمرها الطويلة. وظلت يتيمة في المدينة منذ نشأتها شأنها شأن معظم مدن السودان التي لم تحظ بغير دار واحدة للسينما، وهذا إذا كان حظها سعيداً لأن غيرها ظل محروماً من هذا الفن الرفيع طوال العمر. وسينما كركاب ليست ككل السينمات حيث شاءت لها المقادير أن تكون صغيرة في الحجم قياساً لغيرها. وشاشتها الصغيرة بنيت من الأسمنت الذي

ساعدها على الصمود على مدى الأيام لتتصدى لكل الزجاجات الفارغة والأحذية التي تطاولت عليها كلما انقطع الفيلم أو كان العرض لا يروق للرواد المستديمين. ولكنها رغم هذا وذاك ظلت على الدوام تقدم العروض المنوعة للأفلام العربية والأمريكية والإنجليزية والهندية والإيطالية. ولم تضجر يوماً بالأفلام الغربية الجادة كما فعلت سينمات الخرطوم اليوم. بل ظلت على مر السنين تقدم الأفلام الراقية التي حتى شربت جمهور المدينة بروائع شارلي شابلن، وصوفيا لورين، وأليزابث تايلور، وبرجريت باردو، وإيدي ميرفي، وجاك بلانص، وسيدني بواتير، ومارلين براندو، وجون ترافولتا، وألفيس بريسلي وغيرهم. وتآلف الجمهور مع كل معطيات العالم من الفنون المختلفة والعطاء العالمي لفنون الثقافة والأدب من خلال هذه الدار التي لعبت دوراً مشهوداً في تعليم أهل المدينة. وأفرزت سينما كركاب بهذا التفرد زبائن دائمين ظلت لهم مقاعد ثابتة لا يجلس عليها أحد سواهم مثل (أبرك)، و(أبو جريس)، و(دُمبة)، و (أمينو)، و(أولاد حسكنيت)، والتوائم الثلاثة (حسن وحسين وحسنين) الذين اشتهروا بحبهم غير المحدود للسينما، الذي أفضى بدوره لحبهم الجنوني للمبدعين المصريين وعلى رأسهم عبد الحليم حافظ. ودهش أهل المدينة حينما رأوا

التيمان وهم يشدون الرحال للقاهرة لتقديم واجب العزاء عندما داهمت المنية الفنان الراحل عبد الحليم حافظ. وكان الصحفي البارع ابن المدينة محمود الجراح شغوفاً بالجلوس في مقاعد الشعب بهذه السينما يتأمل تعليقات الرواد قبل وبعد مشاهدة الفيلم. وحكى الكاتب أحمد خليل جيب الله أن محمود الجراح لا يحلو له دخول السينما إلا أيام الأفلام الهندية لأنها تتيح الفرصة الأكبر لممارسة هواية رصد المشاعر داخل صالتها العتيقة. وظلت سينما كركاب تقدم عرضاً واحداً في اليوم وليس عرضين كبقية سينمات السودان بحكم أن أهل النهود ينامون مبكرين ليصحوا مع المنبه الأول لممارسة واجباتهم الحياتية التي تسبق بزوغ الفجر. ويبدأ عرض السينما بعد صلاة المغرب لينتهي بعد ساعتين أو ثلاثة على الأكثر. وفي كثيرٍ من الأحيان يتكرر عرض الفيلم لبضعة أيام خصوصاً إذا وجد الرواج المطلوب من الجمهور. لقد أضافت سينما كركاب عنصرا إيجابياً لليالي السمر النهودية حتى ظهرت عروض سينمائية خاصة بالمدينة على رأسها عرض (علي فندك) بحي الشايقية الذي استفاد من شح التلفزيونات بالمدينة، فأحضر جهازاً للعرض وجهازاً لتلعيب الفيديو وفتح بيته للصغار الذين يحضرون من كل مكان لمشاهدة هذه الأفلام مقابل مال زهيد ما

لبث أن تطور مع تطور الزمن. ورغماً عن الصراع الذي احتدم بينه وبين المنافسين الآخرين والذي وصل إلى مكاتب الشرطة في بعض الأحيان إلا أن هذا العرض السينمائي الخاص ظل مستمراً ليؤكد تعلق أبناء المدينة بالمشاهدة مهما تكن الظروف. وهذا السلوك الذي ابتدعه علي فندك بالنهود يذكر الإنسان بما حدث في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن المنصرم حيث كانت أندية المشاهدة والاستماع قد فعلت نفس الشيء في أمريكا وأوربا وأستراليا ومعظم بقاع آسيا. بل وحتى الإذاعات وبينها إذاعة أم درمان عندما بدأت في عام 1940م كانت قد فعلت نفس الشيء حيث وزع مكتب الاتصال العام البريطاني الذي يمثل جهاز الاستعلامات الحكومي أجهزة للاستقبال في الأحياء، وظل الناس يتقاطرون صوبها في الأمسيات ليقضوا ساعات من الفرح الجماعي الذي أشاعته بينهم البرامج والمواد المعروضة.

❄❄❄

رجاء حسن حامد

المذيعون نفرٌ من الناس شاءت لهم المقادير أن يكونوا مزيجاً من ألوان الطيف. وطبيعة مهنتهم التي يؤدونها فرضت عليهم كثيراً من التفرد الذي أعطاهم الحق في دخول بيوت الناس بلا استئذان. وقد أصبح الكثيرون منهم نجوماً ملأوا ساحات العطاء في شتتى ضروبه. وتعلق الناس بالكثيرين منهم إلى درجة العشق الذي فاق عشق المغنين في كثير من الأحيان. وقد شاءت لي المقادير أن أكون كبيراً للمذيعين في النصف الأول من عقد الثمانينيات، فشعرتُ بكثيرٍ من المسئولية بل والإرهاق من هذه المسئولية الكبيرة. ولم يكن مصدر ذلك الإحساس هو صعوبة العمل وإنما صعوبة أن تتعامل مع هذه الشريحة الحساسة من

البشر وهي شريحة المذيعين. فالكل منهم يحس بأنه النجم الأول الذي لا يضارعه أحد. والكل يشعر بأنه لا بد أن يعيش حياة النجوم ويتحرك تتحرك النجوم ويمارس مزاجه كأكمل ما تكون النجوم. وليست هذه هي القضية وإنما القضية هي أن كل واحد منهم لا يرضى بجدول العمل الذي يوكل إليه مهما كان شكل هذا الجدول. والشكوى دائماً تلحق كبير المذيعين الذي يضع الجدول. وظللت حائراً بين هذا وذاك. فالذي أضعه في نشرات المساء يطالب بنشرات الصباح، والذي أضعه في نشرات الصباح يطالب بنشرات المساء أو الليل. وظللت ألبي رغبات الزملاء الذين هم جميعاً في عداد الأصدقاء بكل ما أوتيت من قوة ولكن هيهات. وكانت أكبر مشكلاتي هي وضع جداول للقدامي الذين ظلَّت لهم خصوصيتهم على مر الزمان. كان بعضهم يطالبُ بنشرات بعينها مثل نشرة أخبار العاشرة يوم الجمعة. والبعض يصر على أخبار الثالثة دون سواها بحكم حجم الاستماع الأكبر لها وتميزها بين نشرات الأخبار الأخرى. ولم أكن أبخل على أحد بتلبية طلبه رغماً عن استحالة ذلك وسط كوكبة النجوم الكبار أمثال عبد الرحمن أحمد، وعلم الدين حامد، وعمر الجزلي، وسكينة عربي، ومحاسن سيف الدين، وعبد الوهاب أحمد صالح، وكمال محمد الطيب

وغيرهم. وكان عزائي أن أرمي العبء على المذيعين الجدد خصوصاً أولئك الذين تمَّ تدريبهم تواً وقد كان لي شرف القيام بذلك التدريب ومنهم: (المقداد شيخ الدين الذي غادرنا إلى إذاعة صوت أمريكا، وإبراهيم أبو كواية الذي التحق بتلفزيون الجزيرة بقطر ثم تنقل بين العديد من الإذاعات والجامعات حتى استقر به المقام في جامعة غرب كردفان بالنهود، ومحمد بشير القراي الذي انتقل إلى جوار ربه في حادث مؤلم بجنوب كردفان، وعمار عبد الرحمن الذي انتقل هو الآخر من تلفزيون السودان إلى قناة الجزيرة القطرية، وفاطمة أحمد علي التي تركت هذا المجال للحاق بزوجها الدكتور خليفة جمعة الخليفة). وفي أحد الأيام وأنا في تلك الدوامة من حل مشاكل جدول المذيعين جاءتني بالمكتب شابةٌ في مقتبل العمر تملؤها الثقة والرغبة في العمل الإذاعي وجلست أمامي غاضبةً لأنها لم تجد الفرصة التي أرادتها وهي العمل كمذيعة بإذاعة أم درمان. وكانت تشكو مر الشكوى من أنَّ لديها موهبة متفردة ولها الكثير مما تريد أن تبثه عبر الأثير ولكن المسئولين قد وقفوا عقبةً أمامها. وسألتها عن هؤلاء المسئولين؟ فعرضت لي بعض الأسماء. وشعرتُ أثناء حواري معها بأنني أمام إنسانة موهوبة بالفعل وجادة في ما تقول وهي طموحة أكثر من اللازم.

ووسط هذا الإحساس قلت لها: سأقوم بإجراء اختبارٍ لك في المعلومات والصوت واللغة، وبعد ذلك سأخطو الخطوة التالية وفقاً لنتيجة الامتحان. وأحضرتُ لها بعض المواد الأخبارية وطلبتُ منها أن تقرأ. وعندما اعتدلت في جلستها وقرأت أمامي شعرتُ بأنني أمام موهبة حقيقية، فقلتُ لها على الفور: «**أنتِ بصراحة خليفة ليلى المغربي**». لم تصدق أذنيها، وكادت تطير من الفرح الذي قرأته في كل خلجات نفسها وفاض من فؤادها المكملوء طهراً ونقاءً حتى بان على كل قسمات وجهها. وقلتُ لها: «**نسيتُ أن أسألك عن اسمك وعن دراستك؟**» فقالت لي: «**اسمي رجاء حسن حامد، وقد تخرجت في كلية الزراعة بجامعة الإسكندرية وهذا هو مصدر خوفي لأنني لست متخصصة في مجال الإعلام**». قلتُ لها هذا لا يضير ما دامت بهذا التفوق والتفرد الذي نترجاه في كل من يتصدى للعمل بهذا المرفق الحساس. وأنا شخصياً خريج قانون ولدينا عدد من الزملاء المذيعين والمخرجين والممثلين والفنيين تخرجوا في كليات ومعاهد لا علاقة لها بما يؤدونه الآن ومنهم معتصم فضل الذي تخرج بالجامعة الإسلامية في مجال لا علاقة له بالإخراج ومحمد الكبير الكتبي الذي درس الزراعة مثلك وحامد عبد الرؤوف الذي درس الطيران وأصبح طياراً وغيرهم وغيرهم.

قالت لي لا أدري كيف أشكرك على هذا التطمين وإعادة الثقة في نفسي. فقلت لها هذه هي الحقيقة، وسيكون لك شأن وأي شأن في هذا المرفق العظيم، ومن يومها امتلأ السودان بعبير جديد وهواء أنقى من العسل اسمه رجاء حسن حامد. فالتحية لهذه الإنسانة العظيمة التي غيرت ملامح العطاء في بلادنا، والدعوة لكل القائمين على الأمور بالدولة أن يمدوا لها يد العون لأنها الآن في محنة حقيقية هي فقدان البصر الذي أقعدها عن مواصلة هذا المشوار الكبير فهل من مجيب؟

❄❄❄

محمد وردي والكرامة

عقارب الساعة أشارت إلى الثامنة مساءاً ورن جرس الهاتف لأجده المخرج الفنان والمبدع شكر الله خلف الله يقول لي بدعابته المعهودة أنا عارف إنك جاهز ولكني أردت أن أطمئن على حضورك فالجمهور الآن يجلس على نار وامتلأت به جنبات المسرح من كل الزوايا. أجبته بأني في الطريق وسأكون عنده بأسرع ما يكون. كان شكر الله قد هاتفني قبل هذا ثلاث مرات بغرض تقديم الحفل الذي قرر التلفزيون أن يسجله من الألف إلى الياء ليس بكاميرات التغطية المعتادة وإنما بعربة التلفزة الجديدة التي ضن بها على الكثير من المناسبات إلا مثل هذه. وقد بعث التلفزيون بهذه العربة الفارهة الأنيقة بكل طاقمها المتكامل من مصورين وفنيي صوت وإضاءة وتشغيل ومساعدين. وبعد دقائق كنت في صالة مسرح القوات المسلحة بقلب الخرطوم والدهشة قد

عقدت لساني من حجم الحضور المكثف على غير العادة. لقد امتلأت جنبات المسرح حتى فاضت. ولأول مرة أرى الجمهور في هذا المكان الشاسع الواسع يقفون على الأقدام دون كلل أو ملل بعد أن ضاق بهم المكان على سعته. ولكنها مشيئة الجمال والعظمة والمحبة التي أبت إلا أن يتفاعل هذا الجمهور مع هذا الهرم الشامخ الذي بادله حباً بحب وقدم له كل فروض العرفان والتقدير والاعتراف بأنه الرقم الأكبر في خارطة الغناء السوداني. وأن حب الجماهير وتقديرها لدوره العظيم قد امتد لأكثر من نصف قرن من الزمان. وظلت المساحة شاغرة رغم تطاول مساحات الفراق التي عاد بعدها الليلة أكثر شموخاً ومعزة. وسط هذا الجو البديع من المحبة والاشتياق والترقب واللهفة وجدت نفسي أصعد خشبة المسرح لأقدمه للجمهور. ولأول مرة في حياتي أصعد الخشبة دون أن أدري ما أقول. تبعثرت من فمي الكلمات والعبارات والمعاني وكأنها هي الأخرى أرادت أن تحتفي بهذه الأمسية السعيدة. واحترت في مداخل الكلام رغم أني آكل عيشي من شغل الكلام. وعلا التصفيق والصفير الذي شق عنان المكان ممتزجاً بالهتاف الداوي من داخل وخارج الصالة. ورويداً رويداً تراءت لخواطري صور الجمال المتناثرة أمامي من ألق الجمهور وجمال الحاضرين

وروعة اللقاء وبهاء المغني فاستلهمت منها عبارات مقتضبة علها تعبر عن فنه البديع. استلهمت روح اللحظة ونسجت منها عبارة لم أعرف ما قلته فيها إلا عندما أسمعني إياها بعض الأصدقاء الأوفياء من أجهزة تسجيلهم عبر التلفون بعد انتهاء الحفل. كانت أجهزة التسجيل بالعشرات في صالة المسرح وكأن الجميع قد أرادوا أن يوثقوا هذه اللحظات لئلا تفلت منهم. وما عرف الجميع أن الإذاعة القومية قد مثلت حضوراً مكثفاً إلى جانب التلفزيون القومي. ووسط هذا الجو المبهرج بالضجيج والسكون، والمطرز بالجمال والفرح، والموشى بالأريج والدموع، والمضمخ بالمزاج المعتق صعد محمد وردي على خشبة المسرح. كان عملاقاً في طلعته، وعملاقاً في هيبته، وعملاقاً في سمته، وعملاقاً في حبه للجمهور. أسعدتني بدايته التي استهل بها إطلالته الأولى بعد نجاح العملية، حيث قال: الحمد لله والشكر لله الذي أنعم عليَّ بنعمة العافية، ثم أردف بعبارة أكثر تأثيراً حين قال: لقد كنت واثقاً أن الله سيعيدني إليكم لأنه هو واهب الجمال والحب والفنون، وأنا أعلم أن الله قد شفاني ببركة دعائكم وتضرعكم له بأن يشفيني من هذا الداء الأليم وأنا لذلك مدين لكم بكل هذا الجميل. هذه العبارات الموجزات التي بدأ بها محمد وردي وصلته الغنائية جعلت المكان يضج أكثر

بالتصفيق والحب والاحترام. وعرف الجميع مكانة العظماء حينما يردون أصول الأشياء إلى واهبها القدير الذي أعطى وأجزل. وازداد المكان جمالاً بروعة الثقة في الله وحمده على نعماء التواصل. غنى وردي كما لم يغن من قبل. نفس النداوة في الصوت الذي زادته نوائب الأيام تعتقاً وجمالاً. ونفس القوة التي ظلت تلازمه على مر السنين فغنى وردي واقفاً بعد أن اضطره المرض قبل السفر للتغني جالساً. والأكثر إدهاشاً أنه قد قدم أغنيةً جديدة تفوق بها على نفسه عنوانها (سلاف الغنا). لقد كانت رقماً صحيحاً يضاف إلى باقة الأغنيات التي قدمها في تلك الليلة. وكنت أحسب عندما تحدثت لشاعرها الذي ظللت طوال الحفل جالساً بقربه أنها أغنية خفيفة وصغيرة تتناسب مع ظروف وردي الصحية لأنه لحنها في فراش المرض، ولكني فوجئت كما فوجئ المئات غيري بأنها أغنية كبيرة وكبيرة جداً على شاكلة جميلة ومستحيلة وجيل العطاء والحزن القديم. فالتحية لمن أهدى إلينا كل هذا الفرح في أمسية الأربعاء الماضي وألف حمداً لله على السلامة. وعلى ذكرى وردي وهذا التغني العذب بمسرح القوات المسلحة جالت بخاطرى ذكرى يوم قضيناه سوياً في حاضرة الجزيرة ود مدني، وكانت المناسبة هي العيد الأول للانتفاضة الشعبية في 1986م. تقاطرت جموع

السياسيين والجماهير من كل مكان لاستاد ودمدني حيث تحدث في الاحتفال العديد من الساسة وعلى رأسهم السيد الصادق المهدي رئيس حزب الأمة، والسيدة فاطمة أحمد إبراهيم ممثلة الحزب الشيوعي، والدكتور الجزولي دفع الله رئيس الوزراء، ثم المشير عبد الرحمن سوار الذهب رئيس المجلس العسكري الانتقالي. وكان حديث الجميع صريحاً وناقداً لمرحلة الفترة الانتقالية التي شابتها الكثير من العثرات في تنفيذ التوجهات ووضع قانون الانتخابات وغيرها من الأمور التي طُرحت في تلك المرحلة الحساسة من عمر السوداني. بعد ذلك غني الأستاذ محمد وردي وصلةً غنائية طويلة أطرب فيها ألوف الحاضرين الذين رقصوا على أنغام أناشيده الجديدة آنذاك عُرس السودان، وعُرس الفداء، ويا شعباً لهبك ثوريتك، وحدق العيون وغيرها مما أطرب حتى طين الأرض. وبعد انتهاء الاحتفالات عاد معظم المشاركين من إعلاميين وسياسيين ومبدعين إلى الخرطوم، وبقيتُ أنا حتى اليوم التالي في ودمدني حيثُ عدت مع الأستاذ محمد وردي على أحد البصات التجارية. كنا نتحدث طوال الرحلة عن هموم الفن والإعلام والسياسة وعن احتفالات عيد الانتفاضة وعن الفتاة الجنوبية التي كانت ترقص على إيقاع النشيد بقدها الأبنوسيّ الفارع. وكان بالقرب منا أحد

الرُكاب يتابع حديثنا بشغفٍ واهتمام، وعندما وصلنا إلى نقطة التفتيش عند منطقة سوبا قال لنا الرجل: بصراحة أنا أحمل معي مسدساً لم يتم ترخيصه بعد وأنا الآن في طريقي للخرطوم لترخيصه، كما أن معي بعض الدولارات التي أحملها لشقيقي بالخرطوم وطبعاً كلا هذين الأمرين محظور هذه الأيام وأخشى أن يصادرني رجال الأمن ويدخلوني في متاهات لا يعلمها إلا الله، ولذلك أتمنى أن تساعدوني لأنكم شخصيات مرموقة ومعروفة ولا يرفض أي شخص طلباً فساعدوني ساعدكم الله. كان ذلك الشاب يتحدث وينظر لمحمد وردي في استعطاف واضح وقد ملأ الخوف عينيه قال له وردي على الفور: والله ياخي نحن ما ممكن نعمل حاجة ضدَّ القانون ونتوسط في مثل هذا الأمر، ولكن يمكنك أن تقف خلفنا أثناء التفتيش فربما يكون هذا في صالحك لأن رجال الأمن حتماً سيتعاملون معنا بظرف. ووقف الرجل خلفنا في الطابور وعندما جاء دورنا نظر إلينا رجال التفتيش وقالوا مرحباً بكم يا رجال الطرب والإعلام، نحن سعداء بكم ولذلك عيب علينا أن نفتشكم وطلبوا من جميع الواقفين في الطابور خلفنا أن يصعدوا للبص دون تفتيش. انفرجت أسارير ذلك الرجل وعاد معنا إلى مقعده بالبص قائلاً: والله إنكم قد أنقذتموني ولا أدري كيف أشكركم

على هذا الدور العظيم؟ فقال له محمد وردي: لا تشكرنا نحن بل أشكر اللهَ الذي نجاك من هذا المأزق، وأنا أنصحك أن تعمل كرامة شكراً لله الذي غطى عليك، وأن تحذر مثل هذا السلوك مستقبلاً. قلتُ لوردي: ما كنتُ أحسبُ أنك ستنصحه بعمل كرامة أو حولية فهل أنت جاد في هذا؟ فردَّ على وردي بسرعة: يا أخي هذا هو إرثنا وأنا مؤمن به ومقتنع تمام الاقتناع ولذلك نصحت به هذا الأخ.

❄❄❄

التمازج الثقافي ومكونات الشخصية

ظل السودان عبر العصور مرتعاً لتلاقح ثقافاتٍ بشريةٍ عديدة، حيثُ تصاهرت فيه العديد من السلالات ذات السحنات المتباينة، والتي نزحت من شتى البقاع حاملةً معها الكثير من الملامح والسمات المميزة. وحوت أرضُه عدداً من القبائل القاطنة والوافدة التي استوطنت عبر الأزمنة لتخلق الجو الذي يناسبها، وتتعامل مع الطبيعة وفق إرادتها ومقدرتها على التواؤم. وحفلت أرض السودان منذ القدم بالعديد من الموروثات الثقافية والفنون والسمات الحضارية التي كان لمجرى النيل فضلٌ كبيرٌ في تبايُنِها وتنوع مصادرها. وقد وصف ذلك الأديب محمد أحمد محجوب بقوله: إنَّ السودان بلدٌ فيه رقعة صحراوية واسعة وغابات يصعب اختراقها ومجالس أدبية مثقفة في الخرطوم ورقص جنوني في الجنوب. ففي الوسط الغربي توجد منطقةُ جبال النوبة التي تقطنها قبائل النوبة ذات الأعراق المتعددة، ويساكنها في نفس الرقعة مجموعة من أبناء القبائل العربية الذين نزحوا مع الهجرات القديمة وهم: (الحوازمة، والمسيرية، والكواهلة، ودار نعيل، وبعض بطون البقارة والحَمَرْ). كما استقرت معهم مجموعاتُ المهاجرين الذين

نزحوا من غرب السودان والبقاع المتاخمة لحدوده الغربية مع دولة تشاد ودولة أفريقيا الوسطى وما جاورها من البلاد ومنهم: (المساليت، والفور، والزغاوة، والداجو، والبرقو، والبرنو، والفلاتة) الذين نزحوا أصلاً من نيجريا خِلال رحلاتهم السنوية للحج. وقد استوطنت معظم هذه القبائل في منطقة دارفور بغرب السودان وما جاورها من ولايات الوسط الغربي وبعض البلاد المتاخمة للسودان. وفي الجنوب عاشت قبائل: (الدينكا، والنوير، والزاندي، والفرتيت، واللاتوكا)، وغيرها من الفروع الأصغر حجماً. وقد أطلق الباحثون لفظ الأقزام، على بعض سلالات الزاندي التي سكن معظمها في الجنوب الغربي من السودان وفي تخوم غابات الكنغو وما جاورها. وفي شرق السودان توجد قبائل البجا ومنهم: (الأمرأر، والهدندوة، والبشاريين، والحلانقة) الذين يعيشون في الأرض المتاخمة لساحل البحر الأحمر. وهم كغيرهم من قبائل الرُحَلْ جُبِلُوا على الترحال الذي يستمر معظم شهور السنة. ولا يكونُ استقرارهم إلا لفترات قصيرة يبدأون بعدها حياة التجوال التي أصبحت جزءاً من طبيعتهم، وتآلفوا معها للحد الذي لم يرضوا بها بديلاً. أما سكان أواسط السودان فقد غلبَ عليهم الدم الحامي. وظلَّت مناطقهم مرتعاً للتمازج بين الأجناس المختلفة بحكم ما تمتعت به من

خيراتٍ عديدة أكسبتها خصوبة الأرض وغزارة الأمطار واعتدال المناخ سِمَةً جذبت إليها المهاجرين من مختلف البقاع لا سيما الغرب والجنوب وبعض بقاع الوسط الغربي. وفي الشمال قطنت العديدُ من القبائل التي انحدر بعضها من السلالات النوبية القديمة مثل: (الحلفاويين، والدناقلة، والمحس، والسَكُوت). وقد انحدرَ بعضُها من جذورٍ عربية عاشت في منطقة الحجاز والجزيرة العربية ومنهم: (الشايقية، والجعليين، والميرفاب، والرباطاب، والمناصير، والرِكابية).

وهكذا نجد أن رقعة السودان الجغرافية قد امتلأت بالعديد من أصناف البشر المتباينة التي كوَّنَتْ في نهاية المطاف الأمةَ السودانية التي هي خليط من أعراقٍ متعددة جمعتها ظروف التاريخ المشترك التي فرضت عليها أن تتعايش فيما بينها رغماً عن التباين الواضح في سحناتها ولغاتها وموروثاتها الثقافية وأساليب حياتها اليومية. وقد تحدث عددٌ من امؤرخين ومنهم (استرابون) و(المقريزي) عن هذا التباين العرقي والاجتماعي فيمن يقطنون بلاد السودان. وأكدوا حقيقته في دراساتٍ مستفيضة يمكن الرجوع إليها لمن أراد الوقوف على هذه الخاصية المميزة لبلاد السودان القديمة. وكان دور المؤسسات الإعلامية والثقافية والسياسية في السودان

أخطر من دورها في بقية البلاد العربية، لأنه كان لزاماً عليها أن تخلق توليفةً متجانسة من كل هذه السحنات التي استعصى الربط بينها في كثير من الأحيان. وبالرغم من أنَّ هذا التباين قد أفرزَ العديدَ من النتائجِ الإيجابية التي تمثلت في إثراء الحركة الثقافية السودانية بالعديد من أشكال الفنون والموروثات والعادات والتقاليد والسلوك الإنساني كالكرم والإثرة والتكافل الاجتماعي إلا أنه في المقابل أدخل السودانيين في إشكالية معقدة لازمتهم لسنواتٍ طويلة وهي إشكالية الإنتماء والهوية ولغة الخِطابِ القومي. وقد دار جَدَلٌ طويل عبر التاريخ حول عروبة أو أفريقية السودان. ورغم أنَّ هذا الجدل لم يستند على منهجيةٍ علميةٍ دقيقةٍ في التصنيف الذي تبناه من تناقضٍ مزعوم بين الأفريقانية Africanism والعروبة إلا أنه قد أفرز في النهاية عدداً من المدارس الفكرية التي تسربلت برداء السياسة مثل جماعة (أبادماك) وجماعة (التروبادور) وغيرها لتنصر هذا الاتجاه أو ذاك، أو تحاول التوليف بينهما كما فعلت جماعة (الغابة والصحراء). إلا أنَّ هذا الجدل قد حسمه القرار السياسي بانضمام السودان لجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية ومنظمة المؤتمر الإسلامي على حدٍ سواء. ولكنَّ رواسب الفكرة قد ظلت متقدةً في كثيرٍ من الأحيان لترجحَ كفة الانتماء

للأفريقانية تارةً وللعروبةِ تارةً أخرى. وقد أفرز هذا التباين العرقي بالسودان تبايناً في الألسن التي اختلفت هي الأخرى من قبيلةٍ إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى. وترسخت عبر السنين العديدُ من اللغات واللهجات التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث الحضاري للأمة السودانية. وقد بذل الباحثون والمختصون جهوداً كبيرة من خلال محاولاتهم لإحصاء اللغات واللهجات المستخدمة في السودان. حيث قام بعضهم – خصوصاً المهتمين بأمر اللغات الأفريقية من غير السودانيين– بتلك المحاولات الجادة. ثم أعادها عددٌ من العلماء السودانيين الذين حصروا عدداً كبيراً منها فاق التسعين في إحدى المحاولات التي أجريت في مطلع عِقْدِ الثمانينيات من القرن المنصرم. وكانت قد جرت قبل ذلك محاولةٌ للحصر أثناء عمليات الإحصاء السكاني الذي أُجري في عام 1956م بعد استقلال السودان بشهورٍ قليلة. حيثُ كانت بطاقةُ الإحصاء تتعرض للجانب اللغوي. وفي عقد السبعينيات قام طلابُ الدراسات العليا بجامعات الخرطوم، والقاهرة الفرع، وأم درمان الإسلامية بعمل دراساتٍ إحصائية لهذه اللغات وتطورها عبر العصور. وقد ظهرت بعضُ المفارقات في نتائج تلك الدراسات، حيث اتسم بعضُها بعدم التدقيق، وتأثر بعضُها الآخر بظروف

الترحال الصعبة التي واجهت الدارسين، فلم يصلوا إلى المعلومات الدقيقة التي هدفوا إليها. إلا أنَّ الخلاصة في نهاية المطاف قد أكدت أنَّ عدد اللغات المستخدمة بالسودان قد تراوحت بين المائة والمائة والعشرين. أما آخرُ الدراساتِ المتخصصة في هذا المجال فهي التي قام بها طلبةُ وأساتذةُ معهدِ الخرطومِ الدولي للغة العربية باستخلاص اللغات السودانية من قائمة (ويلمرز) Willmorz لأسماء اللغات واللهجات الأفريقية. وقد ثبت من خلالها أنَّ العدد المستخدم بالفعل من اللغات واللهجات بالسودان هو مائةٌ وسبعون حسب الدراسة التي أجراها إثنان من المختصين هما: (د. سيد حامد حريز، و د. يوسف الخليفة أبوبكر). وقدمت تلك الدراسة كواحدة من فعاليات المؤتمر الأول للغة العربية الذي انعقد بالخرطوم في كانون أول ديسمبر عام 1982م. ومن خلال تتبع هذه اللغات ثبت أنَّ لغة (البِرْقِد) التي كانت مستخدمة في إقليم دارفور بغرب السودان في طريقها للانقراض، حيث مات معظم الذين يتحدثونها ولم يبق منهم سوى النذر اليسير على قيد الحياة. أما لغة (قُلِي) فقد وُجد في عام 1977م أنَّ أربعة أشخاص فقط من الذين كانوا يتحدثونها مازالوا على قيد الحياة، ولم يتعلمها بعدهم أي إنسان. ولما كانت أعمارهم جميعاً قد تجاوزت السبعين فنستطيع أن نجزم

الآن بانقراضها. كما انقرضت من قبلها اللغةُ (المروية) التي كانت مستخدمةً في شمال السودان، وانقرضت أيضاً لغة (حرازة). والملاحظ أن معظم الأسرات اللغوية الأفريقية لها وجودٌ بين قبائل السودان ما عدا (أسرة الخويسان). حيث ثبت وجودُ ثلاثٍ من الأسر اللغوية الهامة بالبلاد هي: (الأسرة الكنغولية الكردفانية) و (*الأسرة النيلية*) و (الأسرة الآفروآسيوية). ونتيجةً لهذا الثراء الإثني شهد السودان خلال تاريخه الحديث تحولاً واضحاً في شكل الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. حيثُ ظهرت بعضُ هذه التحولات في شكل العطاء الثقافي للسكان خصوصاً الذين تجمعوا حول المدن الكبيرة وداخلها نازحين من الأرياف المختلفة. وذلك عندما وجد هؤلاء النازحون فرصاً أفضل للحياة بحكم انخراطهم في إعمار المشاريع الإنتاجية والمؤسسات الاقتصادية ذات العائد المادي التي غيرت أنماطَ حياتهم إلى الأفضل. وكإحدى سمات هذا التحول ظهر شيءٌ من التطور في المدن واكبه كثيرٌ من التخلف في الأرياف وأماكن القبائل المتنقلة. وقد انعكس ذلك التحول على الحياة الاجتماعية، وألقى بظلاله على مستوى النمو الثقافي للسكان الذي تأثر بهذا الكم الوافر من الأعراق. حيث ظهر واقعٌ لغويٌ متفرد ساعد على انتشار بعض

اللغات وانحسار بعضها الآخر. ونتيجةً لذلك وفدت لغاتٌ جديدة من بعض دول أفريقيا وفرضت وجودها بين لغات السكان. ولكنَّ الأُميةَ قد ضربتْ أطنابَها بين أبناء القبائل الرعوية التي لم تستقر في مكانٍ واحد. ورزح معظمُ الأهالي في غياهب الجهل بحكم ضيق فرص التعليم. حيثُ ظلَّت نسبة المتعلمين إلى عهدٍ قريب لا تتعدى 20 % من الحجم الكلي للسكان الذي كان 22 مليون نسمة. وبعد أن ارتفع حجم السكان في منتصف تسعينات القرن العشرين قلَّ حجم الأمية بنسبة ضئيلة لم تَرِدْ في الاحصاءات المعلنة بشكلٍ دقيق. ولعلَّ هذه الأُمية قد لعبت دوراً مع غيرها خلال التاريخ في خلق صراعاتٍ عديدة بين أبناء الوطن حتى بدت المجموعاتُ العرقية وكأنها شعوبٌ متفرقة لا يجمع بينها أيُّ رابط. وقد أدى هذا التمزق بدوره إلى الكثير من الجهل والخنوع وعدم المواكبة رغماً عن تعاقب الحضارات وتنوع الثقافات في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة بقلب أفريقيا.

❄❄❄

اكتشاف مصطفى سيد أحمد

العزيز القارئ لك التحية والتقدير. ألتقيك اليوم من خلال هذا العمود الجديد الذي سيطالعك أسبوعياً في مثل هذا اليوم، وقد اخترنا له عنوان (أصداء). وهذا الاسم لم ينبع من فراغ، وإنما ظلَّ أثيراً لديّ وظل محفوراً في وجداني لسنوات طويلة. حيث إنني قد

قدمت به برنامجاً إذاعياً استمر لسنوات عديدة قاربت العشر. وكانت تقدمه من قبلي الزميلة الراحلة العزيزة ليلى المغربي غشيت قبرها شآبيب الرحمة بقدر ما أعطت لإنسان السودان من رؤى الجمال والإبداع الخالد على مر الدهور. ولما كان رحيل ليلى قد أثار كوامن الأشجان في نفسي وأنا خارج أرض الوطن فقد أثار هذه الكوامن أيضاً رحيل صديق عزيز ومبدع تلقيته أيضاً خارج الوطن. ولذلك آليت على نفسي أن أبدأ به أولى حلقات هذا العمود. وقصة هذا الصديق المبدع بدأت عندما طلبت مني شقيقتي ثريا إبراهيم عوض في أحد أيام عام 1976م أن أزورها بمعهد تدريب المعلمين بأم درمان لأمر هام. وكانت قد أتت من مدينة النهود في بعثة تدريبية بهذا المعهد ضمن كوكبة من المعلمين أتت من مختلف بقاع السودان. وكنت كالعادة أذهب لإخراجها من المعهد إلى المنزل وأعيدها في مساء الجمعة. كانت الدراسة مختلطة بين المعلمين والمعلمات، وفي ذلك اليوم جئتها كعادتي وبعد أن خرجنا من السور متوجهين نحو حي السجانة بالخرطوم قالت لي: «**لدينا زميل وهو رجل صديق من الدارسين بالمعهد وهو موهوب بمعنى الكلمة، وله صوت قلَّ أن يجود الزمان بمثله. وأنا أريدك أن تتيح له الفرصة ليغني بالإذاعة لأنه**

يستحق هذا الشرف». ولما كانت ثقتي كبيرة في ذوقها أجبتها على الفور بأنني لا مانع عندي مادام صوته بهذا الجمال. وطلبتُ منها أن ألتقي به للتعارف ثم التحدث عن التسجيل وإتاحة الفرصة لأن ضوابط الإذاعة كثيرة في مثل هذه الأمور. ثم إنني لم أزل مذيعاً ناشئاً يحتاج لتمحيص الأشياء قبل عرضها على المستمعين. وفي اليوم التالي أتيتُ مع شقيقتي للمعهد وبدلاً من الرجوع إلى المنزل مكثت في قاعة الاستقبال انتظاراً لهذا الزميل الموهوب الذي تصر على تقديمه للجمهور. وجاءتني بعد قليل بشاب نحيف تعلوه ابتسامةٌ مشرقة. حياني بحرارة قائلاً: «**بصراحة أنا من المعجبين بصوتك عبر نشرات الأخبار وأحسب أن الإذاعة قد كسبت بمجيئكم إليها**» قلت له مازحاً: «**وهل هذا لزوم الرشوة أم أنه الحقيقة؟**» ضحك من أعماقه وقال ل: «**أي والله هذه هي الحقيقة، وأنا لا أجامل**». جلس بقربي يحدثني عن تعلقه بالغناء وأنَّ له محاولات خاصة في التأليف والتلحين، ويتمنى أن تتاح له الفرصة في الإذاعة من خلال سهرتي ليالي المدينة أو أي برنامج آخر حتى يقدم نفسه للجمهور. وفي تلك الأثناء دخل علينا الفنان الأستاذ (صديق عباس) الذي كان يعمل في تعليم الموسيقى بالمعهد، وعندما وجدني أتحدث لذلك المعلم قال ل : «**يا عوض**

بصراحة هذا الشاب موهوب وهو فنان بحق، وقد أتى من قرية ود سلفاب، وأتمنى أن تتيح له الفرصة من خلال تسجيل الحفل الساهر الذي سيقيمه المعهد يوم الخميس القادم حيث سيشارك فيه بفاصل من الأغنيات وسأشارك فيه أنا أيضاً». كانت مشاركة صديق عباس قد شجعتني على الحضور بحكم أنه فنان معروف ومشهور ومعتمد لدى الإذاعة والتلفزيون وسيخرجني من حرج إحضار أجهزة التسجيل إذا لم يكن هناك مطربون مجازون من الإذاعة وفق ما تقتضي اللوائح. فقلت له: «**سأفعل يا صديق وأنا مقتنع تماماً بتزكيتك لهذا الشاب وسآتي في الموعد المحدد بجهاز التسجيل وسأقوم بتسجيل كل الحفل وأنتقي منه ما يناسبنا لبرنامج ليالي المدينة**». في الوقت المحدد جئتُ للمعهد ومعي الزميل الفني داؤد زكي أبادير وكنتُ أنا مقدم الحفل بطلب من إدارة المعهد وكانت أولى الفقرات هي فقرة هذا الصوت الجديد. وما أن بدأ وصلته الغنائية حتى شعرتُ أنني أمام مولد فنان عظيم وكفى. كان ينظر إليَّ طوال الوصلة الغنائية فأرفع له أصبعي البنصر تعبيراً عن النجاح. وعندما انتهى قابلته بالأحضان على سلم المسرح وقلتُ له: «**أنت فنان بلا منازع، وسأذيع لك هذه الأغنيات كاملة في سهرة ليالي المدينة بعد غدٍ دون أن أعرضها**

على قسم الموسيقى أو أي مسئول لأنني أريدها أن تكون مفاجأة للجميع». وفرح الصديق الجديد فرحاً غامراً أحسسته في كل خلجات نفسه وعبارات الثناء التي كالها لي في تلك اللحظات. وافترقنا على أمل أن تكون هذه الوصلة أولى بوادر ظهوره على أجهزة الإعلام. وبعد يومين كان صوته العذب يصدح من خلال راديو أم درمان على مدى نصف ساعة من الزمان خلال سهرة ليالي المدينة. وما أن أطل الصباح ودخلت من بوابة الإذاعة حتى تقاطر علي معظم الزملاء وأهل الفن يهنئون على هذا الاكتشاف الخطير، فقلتُ لهم إنه اكتشاف شقيقتي وليس اكتشافي أنا. وبعد أن أعيدت الحلقة جاءني نفرٌ من الأصدقاء بالتلفزيون طالبين أن أدلهم على هذا الصوت العميق فذهبتُ إلى الشاب الموهوب (مصطفى سيد أحمد) بمعهد تدريب المعلمات المجاور للإذاعة وأخبرته بما حدث، ولم يتمالك نفسهخ من الفرح الذي هو أهل له وجاء معي إلى المحطة. وما هي إلا أيام حتى وصدح عبر شاشة التلفزيون كأجمل ما يكون الحداء. ومن يومها ظل اسم مصطفى سيد أحمد على كل الألسن حتى أخذته يد المنية في ريعان الشباب. وظللتُ فخوراً بأن قدمتُ للشعب السوداني هذا الرقم

الصحيح الذي أطل في ساعة من أحلك ساعات الجدب الذي كان مسيطراً وقتها على ساحة الغناء.

❄❄❄

تأميم الصحافة

التحية والتجلة والتقدير للصحافة السودانية وهي تكمل عامها المائة، حيث بدأ في عام 1903م بصحيفة السودان التي أصدرها لورد كرومر حاكم عام السودان من القاهرة. في تلك الفترة بدأت حكومة الفريق عبود تتخذ بعض الاجراءات التي أزعجت

الشارع ومنها ما حدث من تلويحٍ بتأميم الصحافة. حيثُ كان رئيس وزراء (سيلان) المستر (بندرانايكا) قد أصدر قراراً أمَّمَ بموجبه كل الصحف في بلاده بحكم توجهاته الاشتراكية الموغلة في يساريتها. وضجت وسائل الإعلام العالمية وعلى رأسها الصحف في مختلف دول العالم منددةً بذلك القرار. وكان السودان من ضمن أولئك المنددين. إلا أنَّ رجال السلطة آنذاك بدءاً بالفريق إبراهيم عبود ومروراً بالسيد طلعت فريد وغيرهم من أعضاء المجلس العسكري الآخرين استهوتهم تصرفات السيد بندرانايكا بتأميم الصحافة وقرروا أن يطبقوها بحذافيرها على الصحف السودانية. وحزمت الحكومة أمرها على المضيّ في برنامجها المخطط للتأميم. وبعد ذلك بدأ المسئولون يبحثون عن المبررات لهذا التأميم حتى يُقنعوا به أفرادَ الشعب الذين رفضوه قبل أن يصدرَ به أيُّ قرار. وقد حاولت الحكومة أن تستميل بعض المثقفين والعلماء إلى ذلك الأمر فاقترحت أن يكون موقف الدولة هو أنَّ هذا التأميم سيكون وسيلةً مجدية ونافعة في تقويم اللغة العربية بالسودان، والتي كانت محتاجةً بالفعل إلى تقويم. ومن الناس الذين تولوا ذلك الأمر بشكل مكثف الدكتور محمد إبراهيم الشوش. وقد واجهه مدثر منتقداً ومعاتباً على انخراطه في هذا الأمر الذي يضر بالصحافة

وبالحريات ولا يعني إلا مزيداً من القيود وتكبيل الحريات بدعوى الإصلاح والتقدم. وتحدث مدثر أيضاً إلى الأستاذ عبد الله الطيب مبدياً وجهة نظره بحكم أن عبد الله الطيب كان من أنصار ذلك التأميم لأسبابٍ عديدة من بينها مسألة تقويم اللغة العربية التي طرحتها الحكومة. وعندما شعر مدثر بخطورة هذه المسألة ترجى الأستاذ عبد الله الطيب ألا يكتب رأيه هذا بالصحف لأنه سيضرُ به، وسيُضطرُ هو على الرد عليه وانتقاده في الصحف، وهو لا يرضى مثل هذا الموقف لأستاذه وعمه الجليل. ولكن بعد أيام نشر البروفيسور عبد الله الطيب بصحيفة الرأي العام مقالاً أوضح فيه وجهة نظره المؤيدة لتأميم الصحافة. وما كان من مدثر إلا أن أمسك قلمه وسطر مقالاً انتقد فيه ذلك المقال. وكانت صحيفة الرأي العام قد نشرت في تلك الأيام بعض المقالات التي برزت من خلالها روحٌ نقدية لما يدور في أروقة الحكومة والندوات المصاحبة، ونشرت من ضمنها مقالاً تحت عنوان تأميم أم تكميم في اليوم الثالث من سبتمبر 1960م بقلم مدثر عبد الرحيم. وهنا اشتاط البروفيسور عبد الله الطيب غضباً على تلميذه مدثر الذي ما توقعه ينتقد آراء أستاذه وعمه على أعمدة الصحف. وفي نهاية المطاف اتخذت الحكومة قراراً بعدم المواصلة في أمر التأميم ما دامت له

كل تلك السلبيات وأنه قد يفتح لها جبهاتٍ للصراع هي في غنىً عنها.

❄❄❄

نجوم بعيدة

كثير من الناس حباهم الله موهبة الاستماع للحوار الإذاعي أو التلفزيوني الجميل والتأمل في مفرداته والغوص بين معانيه. وكثيرون هم الذين يفصحون عن حبهم الشديد لهذا المحاور أو ذاك من الذين يقدمون برامج الحوار عبر المذياع أو التلفزيون.

ولكن قليلون جداً هم أولئك الذين يستطيعون أن يديروا حواراً إذاعياً أو تلفزيونياً ناجحاً وشيقاً يغوص في أعماق الضيف ويخرج منه بالدرر الثمينة ليعطي الناس جرعات من الفرح والعلم والمعرفة المفيدة. ولو تجولنا في كل فضائيات العالم التي تضج ببرامج الحوار ليل نهار لخرجنا بعدد قليل جداً من الموهوبين حقاً في إدارة دفة الحوار. ليس ذلك على المستوى المحلي بل عبر كل محطات الإذاعة والتلفزيون التي نشاهدها كل يوم. وذلك باختصار لأن فن الحوار ليس بالفن السهل، وإقناع المتحدث ليس بالأمر الهين كي يدلي بكل ما لديه، واستمالة الضيف للمحاور ليست حظ كل إنسان حتى يخرج بما يريده المتلقي من خلال الأسئلة الجريئة والمعلومة المفيدة والجديد المبتكر الذي يفيد الناس. ولكن رغماً عن ندرة المحاورين اللبقين الجيدين في كل بلاد العالم إلا أننا لا بد أن نعترف أن الأستاذ المبدع نجيب نور الدين هو واحد من هؤلاء بلا زيف أو نفاق. بل هو من أساطينهم الذين يعرفون مكامن الداء ويدركون كيف يديرون دفة الحوار الجريء السلس الذي يشدك إليه مهما كانت الظروف. وهو من القلائل الذين يشعرون الضيف أنه في بيته وليس داخل الأستديو. ونجيب نور الدين لم ينشأ أو يترعرع في كنف الإذاعة أو التلفزيون وإنما نشأ وتربى في أحضان

الصحافة التي تختلف كثيراً عن الإذاعة والتلفاز. ولكنه رغم ذلك عندما دخل أستديوهات الإذاعة أثبت أنه كأنما ضل طريق البداية عندما صار صحفياً ولم يكن إذاعياً منذ الميلاد. ولعله لم يكن بدعاً في ذلك وإنما احتذى حذو شيخه الأستاذ محمود أبو العزائم الذي بدأ صحفياً ثم نجح إذاعياً أكثر من كثير من أبناء المهنة الذين ولدوا بين أحضانها. ورغم أن برامج الحوار في معظم الإذاعات والتلفزيونات شبيهة ببعضها البعض إلا أن نجيب نور الدين كسر هذا الافتراض البدهي عندما قرر ألا يحاور إلا النجوم البعيدة. وهو بذلك كأنما أراد أن يجعل من برنامجه مائدةً دسمة متشعبة الأطراف منوعة الأشكال متجددة الرسوم متباينة الأفكار. فالنجوم البعيدة ليست لها وظيفة واحدة أو إطار واحد يقلل من تنوعها، وليست تنهل من معين واحد يبعث على الرتابة، وإنما الأديب والمغني والممثل والرياضي والكاتب والصحفي والمذيع والتشكيلي والنحات والمؤلف الموسيقي والعازف ورسام الكاريكاتير وكاتب السيناريو ومهندس الديكور والسياسي المتمرس وحكم الكرة والسباح وغيرهم نجوم في حياتنا. والكثيرون منهم فرضت عليهم ظروف الحياة أن يبتعدوا لأسباب لا يجمع بينها إلا عنصر القدر أو الصدفة. فمنهم من ابتعد بسبب المرض ومنهم من سافر لبناء

الذات، ومنهم من أجبره رجال الأمن على سلو الوطن، ومنهم من تعسفت دواوين الحكومة بإعطائه تأشيرة خروج ظالمة سُميت الصالح العام ومنهم ومنهم. وظلت أسماؤهم ورسومهم وخلجاتهم وأصواتهم تعشعش في وجدان الإنسان السوداني الذي تعشقهم رغم عسف الظروف. ولم يكن من سبيل إليهم إلا عبر نجيب نور الدين. فهل بعد كل هذا توقف الإذاعة نجيب نور الدين وبرنامجه العظيم نجوم بعيدة؟ سأظل حائراً ومدهوشاً ومتألماً حتى يعود ولا يغنيني عن ذلك أي عذر أو جواب أو تبرير لأن نجوم بعيدة هو البرنامج الذي لا تقو أصابعي على تحريك المؤشر عنه كلما وقعت عليه بالصدفة رغم أنني أتجول طوال الليل بين الإذاعات ثم أنني من نوع المستمعين القلقين الذين لا يثبتون على محطة واحدة إلا إذا كان بها برنامج نجوم بعيدة.

❄❄❄

تدريب المذيعين

امتلأ أثير السودان بالإذاعات الخاصة والحكومية حتى كادت لوحة الراديو أن تضيق بالمحطات التي تطالع جمهور العاصمة الخرطوم صباحاً ومساءاً. ولعل تطور الحياة البدهي يقتضي أن يزيد حجم الجرعات الإذاعية كلما وجد الناس إلى ذلك سبيلاً. ولا شك أن ذلك في مصلحة المتلقي الذي توفرت له الخيارات بشكلٍ أفضل مما كان. ولكن الذي لا أفهمه ولا يستقيم مع العقل هو لماذا لم تقم هذه الإذاعات بتدريب كوادرها من

المذيعين حتى يواجهوا المنافسة التي يمليها مثل هذا الانتشار. إن هذا الأمر لا بد أن تأخذه الإذاعات مأخذ الجد وإلا فإن طوفان الجهل وعدم الدراية سيقضي على كل جهد مبذول. وليس تدريب كوادر المذيعين والمذيعات أغلى من جلب أجهزة التشغيل والأسطوانات والكومبيوترات وبناء الأستديوهات الجديدة. لقد بذلت معظم هذه الإذاعات مالاً وفيراً لتبدأ إرسالها على الهواء ولكنها لم تنفق فلساً في تدريب كوادرها التي تقرأ الأخبار أو تقدم البرامج أو تمارس عمل مذيعي الربط. ولذلك كثرت الأخطاء إلى درجة أننا لم نعد نثق في كثير من الأصوات الجديدة. وأنا أجزم أن هذه الأصوات الجديدة أصوات طموحة وفيها ما هو أجمل من كثير ممن عرفنا في تاريخ الإذاعات وهي أصوات تشتاق للحظة معانقة الجمهور وتطمح إلى النجومية التي هي حق طبيعي وأصيل لكل مجتهد. ولكن كيف يستقيم الأمر وهم لم يجدوا أي جرعة من تدريب لا في مجال الأداء الصوتي ولا في مجال التعامل مع فنيات الأستديو ولا في مجال الإعداد البرامجي ولا في مجال اللغة التي اهترأت وبكت وشكت على الأثير وكادت أن تحتسب حياتها على وصف الشاعر حافظ إبراهيم في تائيته المشهورة التي سماها لسان حال اللغة العربية. ونحن تتفطر قلوبنا كلما وجدنا شاباً أو

شابة جميل الصوت وكثير الطوح ولكنه أطلق على الهواء ليطير بلا جناحين دون ذنب جناه. وأنا في هذا الإطار أحمل المسئولية كاملةً لمديري الإذاعات في السودان والقائمين على أمر المذيعين. وقد تحدثت مراراً وتكراراً مع عدد من هؤلاء المديرين وعلى رأسهم الأستاذ عوض جادين عندما كان مديراً لإذاعة أم درمان بل وعرضت عليه مراراً أن يفتح المجال لتدريب كوادر المذيعين الجدد ونحن على استعداد لتقديم ما لدينا من معلومات وخبرة يمكن أن تفيد زملاءنا الجدد. وطرحت نفس الأمر على مديرين آخرين للإذاعات ومنهم الأستاذ عماد الدين إبراهيم والأستاذ علم الدين حامد عندما مدكان مديراً لإذاعة دنقلا وعلى الأستاذ عبود سيف الدين مدير إذاعة وتلفزيون الجزيرة بود مدني. وفي كل هذه الحالات لم يكن همي غير أن يجد زملاؤنا الجدد ما وجدناه نحن في سالف الأيام عندما كانت القناة الإذاعية دقيقة في اختيار كوادرها وحريصة على تدريب كل فرد حتى لا يستشري الجهل واللغط والأخطاء عبر الأثير. وأشهد الله أن الذي تعلمناه أيام تدريبنا في الإذاعة هو الذي خلق منا أناساً طموحين وقادنا للبحث في أضابير العلم والمعرفة سواء في مستواها الأكاديمي المنتظم أم في مستواها الفردي الاجتهادي. وفي الحالين كانت عبارات الأستاذ

ياسين حسن معني والأستاذ أحمد قباني والأستاذ محمد خوجلي صالحين هي التي تضيء لنا الطريق. ولا أنسى أن تدريبنا في عام 1975م كان جاداً لدرجة المبالغة حتى أن الإنسان يحاسب إذا تأخر لخمس دقائق ناهيك عن الغياب الكامل للتدريب. ولمن يريد أن يحيي هذه السنة الفاضلة من مديري الإذاعات الحاضرين أقول إن التدريب الإذاعي الجاد الذي تلقيناه كان ينقسم إلى قسمين أحدهما نظري والآخر عملي. وكان التدريب النظري عبارة عن محاضرات ودروس في فنون العمل الإذاعي والأداء الصوتي والتحرير وقراءة الأخبار وإجراء المقابلات. في حين كان الجانب الثاني هو تطبيق هذه الدروس عملياً من داخل الأستوديو. وكان معظم التدريب العملي يتمثل في قراءة نشرات الأخبار والمواد الجادة كالتعليقات السياسية والتحليلات، وأقوال الصحف، وما إلى ذلك. وكان الأستاذ ياسين يُحضر إلينا مجموعةً من أوراق الأخبار التي يأخذها من أرشيف قسم الأخبار بالإذاعة لنقوم بقراءتها. وكثيراً ما ينتقد أسلوب تحرير تلك الأخبار وأخطاء الصياغة والأخطاء النحوية أو المطبعية التي تصاحبها، ثم يقوم بتصحيح تلك الأخبار ويضع لها البدائل الصحيحة، مما عمق فينا الحس النقدي والتقويمي منذ تلك الفترة المبكرة من عملنا بالإذاعة وهو ما

نريد أن يحصل عليه زملاء المهنة الجدد فهل من مجيب يا مديري إذاعات السودان؟

❄❄❄

ليلة الحزن الكبيرة

كان يوم أمس الثلاثاء يوم الحزن والأسى والمدامع الحرى لكل أهل الإذاعة وهي تعيش ذكرى إنشائها. ولم يمر علي يوم أسود منه خلال هذا العام حيث إنني لم أكد أتمالك نفسي من هول الخبر الفاجعة الذي فاجأني به عبر الهاتف الزميل والصديق المخرج أسامة حسن شريف عندما اتصل بي هاتفياً في منزلي ليخبرني بأن الزميلة الإذاعية القديرة علوية آدم قد انتقلت هذا الصباح إلى رحاب الله مأسوفاً على شبابها. وبين أرتال الدموع

التي حاولت احتباسها قبل أن أخرج إلى المقابر وألحق بركب المعزين من الزملاء والأصدقاء المكلومين الذين عايشوها أعواماً من الجمال والفرح والإنسانية فاجأني هاتفي مرةً أخرى عندما رنَّ بشدة.ورفعت السماعة لأجد الزميل المهندس الإذاعي الأستاذ صلاح طه يقول لي البركة فيكم وفينا جميعاً. فقلت له لقد علمت بوفاة علوية قبل قليل من أسامة، ولكن صلاح قاطعني ليقول كلا لا أقصد علوية وإنما جاءنا نعي الآن للزميل حامد عبد الرؤوف الذي توفي قبل قليل بدولة قطر، وسيصل جثمانه صباح غدٍ الأربعاء ليشيع بين أهله في أم درمان. ولم أتمالك نفسي هول المصاب الذي تضاعف، وأصبح الحزن انهياراً بمعنى الكلمة. غالبت هذا الألم الممض الذي لا يدري حجمه إلا من عايش علوية وحامد. لقد كانا صديقين حميمين ورفيقين عزيزين ليس لي وحدي وإنما لكل أهل الإذاعة. وظلا حمامتين للسلام والمحبة والوئام في ردهات الإذاعة طوال السنوات التي عملا بها. ورغم الفارق الزماني بين مجيء كليهما للإذاعة إلا أنهما كانا صديقين لبعضهما ولكل من عاشرهما من المذيعين والمخرجين والفنيين والعمال. كانت علوية آدم مثالاً للمرح وإشاعة الفرح والابتهاج بين الناس. وكانت حريصة على عملها الإذاعي ونشرات الأخبار وبرامجها العديدة

لاسيما ما يطلبه المستمعون الذي حرصت على تقديمه إلى يوم أمس. حيث كانت تسجله من منزلها لظروف المرض. وظلت علوية حريصة على الاجتماعيات التي تخص أياً من الزملاء. وكان الجميع أصدقاءها خصوصاً الراحلة ليلى المغربي التي لم تكن تفارقها يوماً. وبالمقابل كان الراحل العزيز حامد عبد الرؤوف فاكهة المجالس في إذاعة أم درمان بأريحيته ودعابته ونكتته الحاضرة وبديهته السريعة وعلمه الغزير. دخل الإذاعة من أغرب الأبواب حيث كان طياراً درس علوم الطيران وتخرج كمساعد كابتن من معهد الطيران بالقاهرة. وهناك حير أساتذته وزملاءه حينما اختصر كل دروس البداية في جرعة واحدة وفاجأ الجميع بأخذه لإحدى الطائرات القابعة في نادي التدريب وحركها وارتفع بها عن الأرض ثم حلق بها في السماء كما يحلو له، وعاد بها إلى المدرج وأنزلها في مكانها المحدد بسلام وطمأنينة وهو في أيامه الأولى لدراسة الطيران. وهذه الحادثة على ما فيها من ذكاء وعبقرية تستحق التقدير والإشادة إلا أنها جلبت عليه الحسد وأحقاد مرضى النفوس حتى كره الطيران في نهاية المطاف والتحق بإذاعة أم درمان التي برع فيها أيما براعة. وأذكر له شجاعته عندما جئته في بدايات عام 1988م أترجاه أن يعمل معي على الهواء مباشرة في

برنامج صباح الخير يا وطني حينما رفض الجميع ذلك خوفاً من تجربة الهواء التي ابتدعناها آنذاك أنا وصديقي المخرج معتصم فضل مدير الإذاعة الحالي إلا أن حامد لم يتردد لحظةً وجاءنا بكل الشجاعة وأدى دوره كاملاً على الهواء وظل معنا بصفةٍ يومية حتى لحق به الآخرون بعد شهورٍ ليست بالقليلة. رحم الله الصديقين الإذاعيين الراحلين علوية آدم وحامد عبد الرؤوف الذين أبت إرادة المولى إلا أن يرحلا في يوم واحد هو يوم الأمس الثلاثاء الثاني من مايو 2006م بعد أن فرقتهما الأيام لسنواتٍ طويلة، حيث عاش حامد مع أسرته الصغيرة في دولة قطر التي عمل فيها بتلفزيون الجزيرة، وظلت علوية حبيسة فراش المرض طوال ما يزيد على السبعة أعوام بمنزلها بأم بدة. وستظل ذكراهما خالدة إلى الأبد والمداد الذي سطرا به حبهما سيظل ينزف دماً في عيوننا نحن أهل الحوش الكبير الذي ترعرعا فيه وفارقاه بدون وداع. وإنها إرادة الله التي لا راد لها وإنا لله وإنا إليه راجعون.

❄❄❄

عرسُ جامعة إفريقيا

كان الشهر الماضي هو شهر جامعة أفريقيا العالمية بحق وحقيقة. وذلك من خلال اللوحة الأخاذة التي رسمتها بخيوط من نور وقدمتها لأهل السودان كافةً رجالاً ونساءاً شيباً وشباباً في صحاف من ذهب سميت ملتقى الجامعات الأفريقية. لقد ظلت هذه الجامعة منذ سنوات نشأتها تعمل بمعزل عن الأضواء وبعيداً عن الضوضاء وأعين الناس حتى جهل الكثيرون كل شيء عنها. ولعل طبيعتها الخاصة وبُعدها الجغرافي عن قلب المدينة فضلاً عن تطورها من مركز إلى جامعة قد أسهمت بدورها في ذلك الوضع. ولكنها طوال الشهر الماضي كانت درة المحافل وحديث الناس. وبرزت كالكنز الذي اكتشفه الكثيرون فجأة. ملأت شوارع العاصمة

بكرنفالات الفكر والعلوم والفنون والرياضة والجدل الجاد الذي لم يركن للسفسطائية ولا للماحكات العقيمة. حيث فاضت مواعينها بجمال أبناء أفريقيا وعلمهم وتراثهم وثقافتهم وأدبهم الجم. وكانت البداية عندما صعد على خشبة مسرح قاعتها الجديدة نفر أنيق من طلابها بأزيائهم المزركشة القادمة من شرق وغرب وشمال وجنوب القارة ليقدموا للضيوف عروضاً فنيةً راقية وحارة وصاخبة وموزونة بهرت كل الحاضرين من وزراء وسفراء وعلماء ومديري وأساتذة جامعات ومواطنين هم بعض من ضيوف الجامعة الذين تقاطروا بالمئات من كل مكان. وكان ذلك الاحتفال الأول إيذاناً ببدء الفعاليات المصاحبة للملتقى. وعلا التصفيق الحار لروعة طلاب الجامعة الذين أدهشوا الناس بشجاعتهم النادرة في التعبير الفني. وما حسبهم الناس يتمتعون بكل هذه المواهب لأنهم ما عُروفا طوال الوقت إلا هادئين مهذبين خاشعين عاكفين على التحصيل والمداومة على حلقات التلاوة ومنابر المساجد وقاعات المؤتمرات العلمية. وكأنهم أرادوا أن يقولوا للجميع إن الإسلام ليس جامداً أو متقوعاً في اللاإنسانية. ولذا كان النجاح حليفهم. ثم انتقل كرنفال الفرح إلى كلية الطب حيث احتضنت قاعاتها أكبر معرض للكتاب الأفريقي لم يسبق له مثيل في تاريخ السودان. مئات من العناوين

لمؤلفات ومخطوطات في كل ضروب المعرفة الإنسانية. وبرزت السواحيلية والهوسا واليوروبا والماندنقو والأولوف وغيرها إلى جانب الإنجليزية والفرنسية والعربية جنباً إلى جنب. وبجانبها كان معرض التراث الأفريقي الذي حوى العديد من فنون أفريقيا ومقتنياتها التي سافر بعض الأساتذة خصيصاً لجلبها من أماكن إنتاجها الحقيقية وسط أدغال القارة. وعرفنا من خلالها كيف يلبس الأقزام، وماذا يأكل الزولو، وبماذا يقاتل الكواوا، ولماذا يرقص الماندنقو، وبماذا يتحلى الهريرو، وكيف يتزوج الأولوف، وعلام يقاتل العفر، ومتى يخلد البربر للراحة، ولماذا يعشق أمبررو الترحال. وازدهت جامعة أفريقيا بزوارها الذين شرفوا تلك الليلة السعيدة والليالي التي تبعتها لأن المعرض وعرض الفنون قد استمر لأكثر من أسبوع هي أيام فعاليات الملتقى. وبالمقابل كانت قاعة الصداقة على موعد مع عشرات العلماء الأفارقة الذين جاءوا من كل بقاع العالم يحملون رسالةً متسقة ومدروسة هي التأمل في حاضر وماضي ومستقبل أفريقيا. وبدا ذلك جلياً من خلال المحاور العديدة التي طرح المؤتمرون أوراقهم من خلالها حيث الثقافة والسياسة والعلوم والاقتصاد والكوارث والإعلام والتاريخ والأدب واللغات. لقد أذهل الحضور المكثف والمواظبة الدائبة على جلسات النقاش كل

الحاضرين بمن فيهم أهل قاعة الصداقة الذين همسوا في آذاننا أنهم لم يشهدوا حضوراً بهذه الكثافة لأي مؤتمر علمي قبل هذا. وكانت الجدية والعلمية هي القاسم المشترك بين كل القاعات التي تناغمت في انسجام تام ليخرج الأمر بهذا الشكل البديع. وكانت ساحة استاد المريخ وميادين مقر المعسكرات بسوبا وجامعات السودان العديدة هي الأخرى على موعد مع فرق كرة القدم بالجامعات الأفريقية ومتسابقي الماراثون الذين تبارو فيما بينهم ليس للفوز بالكأس الذي نالته نيجريا في نهاية المطاف وإنما للتلاقح والتعارف فيما بينهم. الشيء الوحيد الذي لم يعرفه أحد ونختم به هذا العمود هو أن نحيي نفراً من الرائعين الذين لولاهم ما قام هذا الملتقى وهم: بروفيسور عمر السماني، بروفيسور محمد علي حسين، بروفيسور محجوب الحسين، بروفسير حسن مكي، بروفيسور يوسف الخليفة، بروفيسور سيد حامد حريز، بروفيسور مبيوع مصطفى، بروفيسور شمس الدين زين العابدين، بروفيسور علي أحمد محمود، د. عبد الله حمدنا الله، د. عبد القيوم عبد الحليم، د. عمر أحمد سعيد، د. عوض خليفة، د. بشرى محمد أحمد، د. طارق أحمد عثمان، أ. محمد عثمان أحمد إسماعيل، د. بشير عبد الواحد، د. حسنات عوض ساتي، أ. قسم السيد إبراهيم،

أ. عبد الحميد البشرى، أ. حافظ عباس، أ. عبد الرحمن علوب، الرائد عمر عباس، والمرابطين الحقيقيين في الخندق الساخن د. كمال جاه الله، د. يوسف خميس أبو رفاس، أ. راشد مبارك يوسف، والرمح الملتهب الدبلوماسي رشاد فراج الطيب. ودامت أيام أفريقيا سعداً وعلماً وثقافة.

❄❄❄

فنانون ومبدعون في رحاب الإيدز

المتتبع لأعمال ورشة العمل الإقليمية التي نظمها المكتب الإقليمي لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي للمنظمة العربية خلال الأسابيع الماضية والتي تناولت مشكلة مرض الإيدز في المنطقة العربية يعجب لحجم المشاركة الضخم الذي ظهر من خلال هذه الورشة. كما كان الاهتمام العالمي والإقليمي بالورشة مثار نقاش حتى على مستوى مجالس الوزراء والإدارات التنفيذية لعدد من الدول. وحظيت بتغطيات مكثفة لم يشارك فيها الإعلاميون فقط وإنما عدد معتبر من الفنانين الذين تراوحوا بين موسيقيين وممثلين ومخرجين ومنتجين سينمائيين. والسبب الأساسي لهذه التظاهرة غير المسبوقة هو خطورة الإيدز التي تجاوزت حديث العاطفة لتتغلغل في عظام المجتمعات بشكل رهيب. وخطورة الإيدز ليست في أنه بقضي على حياة الإنسان فحسب، ولكن لأنه يشوه جمال الإنسان حين يؤدي إلى هزال جميع أعضائه التي تهترئ وتتعذب

وتضمر وتصبح عالة عليه فيتمنى الرحيل قبل أوان الرحيل. وقنوات الإعلام لم تقصر في نقل صور عشرات المشاهير الذين شوههم وأقعدهم هذا الداء العضال فأصبحوا عظة وعبرة للآخرين. ومقارنة بسيطة بين طبيعة الإنسان قبل الإصابة وبعدها كفيلة بأن تكون عبرة للعاقلين بتفادي مسببات هذا الداء الذي ثبت أن تسعة وتسعين في المائة من إصاباته بسبب الإنسان نفسه. بمعنى أن تفاديها أمر مقدور عليه بضمان يكاد يصل إلى نسبة مائة في المائة. إذن فالمخاطر والمآسي الناتجة عن هذا الداء العضال هي التي فرضت اهتمام الأوساط بها، فتقاطرت مرغمةً وصاغرة نحو ورشة العمل الإقليمية التي نظمها المكتب الإقليمي لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي للمنظمة العربية والتي انعقدت بالقاهرة خلال الأسبوعين الماضيين. ومما أثار مخاوف العرب قاطبةً أن الإحصاءات قد أكدت أن عدد المصابين في العالم العربي قد بلغ 550 ألف مصاب حتى عام 2002م. وبلغ عدد الذين أصابتهم العدوى 83 ألفاً في نفس العام، وهم جميعاً في طريقهم للموت. والمأساة الأكبر التي أكدتها هذه التقارير أن معظم نسب الإصابات قد كانت لدى الشباب الأصغر سناً. والسبب لا يحتاج إلى كبير عناء في التفكير. حيث استشرت بين الشباب ظاهرة حقن

المخدرات التي كادت أن تصبح موضة بين المتعاطين في عدد من الدول العربية، وهي واحدة من أسرع الطرق لانتقال عدوى الإيدز. إلى جانب ذلك فقد تزايد عدد النساء المصابات بهذا المرض في عالمنا العربي نتيجة أشياء كثيرة على رأسها تعاطي الجنس مع الشباب المراهقين خصوصاً بين طالبات المدارس والجامعات اللائي حسبنه نوعاً من الترفيه والمتعة المباحة. ومادام الشبان لا يمانعون بل ويرغبون ولهم من الحيل وأسباب التغطيات ما لهم فلماذا لا يعيشون اللحظة؟ لقد استشرى داء الإيدز بين هؤلاء وانتقل من خلالهم إلى أبرياء آخرين بينهم الأطفال حديثو الولادة، وبينهم رجال ونساء ما علموا أن أزواجهم وزوجاتهم يقومون بخيانتهم بياتاً ونهارا. ويبقى الهاجس أليما ومؤرقاً لكل الأسر البريئة ما لم يتغير سلوك أبنائها وبناتها إلى الأفضل. ويبقى البحث عن الملذات في الأمسيات غير مأمون العواقب. وتبقى كثير من السيارات المظللة أوكاراً متحركة لممارسة كل محظور. فحصنوا أبناءكم وبناتكم واحذروا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، وإلا فارتقبوا الطوفان الذي لن ينجو منه أحد. والتحية لورشة العمل الإقليمية التي نظمها المكتب الإقليمي لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي للمنظمة العربية ولمثيلاتها من الورش والندوات التي

اهتمت بمكافحة هذا الداء اللعين الذي هو طاعون العصر بلا منازع.

❄❄❄

فلترقبوا الريح الأحمر

يا رجال الدين يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد؟ أيها السادة والسيدات دعوني أنذركم وأدق ناقوس الخطر. أبناؤكم وبناتكم فسدت أخلاقهم، وضاعت كرامتهم وشرفهم ومثلهم العليا. الزنا والمخدرات والموبغات واللواط وكل أنواع المفاسد أصبحت من الهوايات المفضلة. والدولة غارقة في همومها العديدة. رياح النتانة والقذارة بدأت تفوح من أردان الطلبة والطالبات وقطاعات الشباب العديدة في الشوارع والأسواق والميادين، وللأسف أكثرها في الجامعات. طلاب وطالبات يمارسون الزنا وأبشع أشكال الدعارة دون وجل أو كلل. بعضهم يستقل الأركان الهادئة، وبعضهم الغرف المظلمة، وبعضهم السيارات المظللة فيقود أحدهم السيارة ويكون المقعد الخلفي ملاذاً آمناً للجنس بين شخصين أو أكثر. ثم ما يلبث أن يتحول السائق إلى المقعد الخلفي ليقودها من قضى وطره ويتلذذون بالجنس الجماعي. والضحايا هن بعض بناتكم يا من تحسبون أنهن ينهلن من معين العلم الصافي لمجرد أنهن قد دخلن

الجامعة. ليست هناك جهة اليوم مبرأة من الرذيلة، والأولاد لا عرض لهم لأنكم لم تراقبوهم ولم تبذلوا الجهد المطلوب في تربيتهم على الفضيلة. كثير منهم أفسدتهم قنوات التلفزيون الفضائية التي ربحت جولة الرهان في أسوأ أسواق العهر والنخاسة. وكثير من أولادكم اكتفوا برفاقهم من الذكور ليمارسوا أبشع ما يمكن أن يتصوره بنو الإنسان من مضاجعة بعضهم البعض في وضح النهار أو على الأقل مداعبة بعضهم بغرض التلذذ. البعض وجدوا في بيوت العزابة من أصدقائهم ملاذاً آمناً، والبعض لاذ بالعربات المظللة، والبعض لجأ لبيوت الأسر نفسها ما دام الآباء والأمهات منشغلين بمتاهات الحياة وغابت عين الرقيب. الزجر والعقاب والانتقاد واللوم اضمحلت في نفوس الكبار التي غيبتها مذلة البحث عن قوت اليوم، وسحقت قيم الأخلاق طبيعة المرحلة الخطيرة. إني أدق ناقوس الخطر وأقول إن الإيدز قد ولج داخل مؤسساتنا التعليمية الكبرى. وأعلن للجميع أن خمساً من جامعاتنا الكبيرة والكبيرة جداً في قلب العاصمة بلغت فيها إحصائية الطلبة والطالبات المصابين بالإيدز أكثر من مائتين وخمسين في كل جامعة. وهي ليست جامعات صغيرة من النوع الذي نما عشوائياً في ظل الغفلة وإنما هي جامعات راسخة وعريقة وذات صبغة

أصيلة وموغلة في انضباطها وقوانينها وتدينها الظاهري. كثير من طلبتها وطالباتها وما أكثرهم أرادوا أن يعيشوا اللحظة، ولم يجدوا ردعاً فسقطوا في باحة الزهو والرغبة العارمة. وكثرت البنات الساقطات من الداخل الزاهيات من الخارج، ولم يعد بينهن ذلك الحياء الذي ملأ نفوس أمهاتهن في الزمان الغابر. ذلك لأن الاختلاط والتفسخ وقلة الأدب صارت بينهن أمراً لا يستحي منه الإنسان المتحضر، بل هو سمة العصر المميزة. وبفضل الظروف وفضل التطور وفضل الإعلام الأجنبي وفضل الأولاد الحناكيش المراهقين الجاهلين بعواقب الأمور صرن يتلذذن بكل ما يتيسر مما أفرزه العصر. وبعد أن كان سماع كلمة بذيئة واحدة يدمي عيون أمهاتنا خجلاً صار سماع كل ما هو فاحش وفاضح بذيء ينثر الفرح والبهجة في نفوس البنات ويلهب مشاعرهن بالنشوة ويؤجج أشواقهن لأحضان الشباب المنتشرين بينهن كالجراد طوال ساعات الليل والنهار. والفتاة لا تعود لبيت أهلها بعد انتهاء المحاضرات إذا وجدت وإنما تنتظرها شلة المرح المزيف وهي تتوق لكوب العصير المثلج في صالات الكافتيريات المنتشرة في كل مكان. وبمتناول يدها لفافات البيرقر الساخنة التي هي على قفا من يشيل. والأهم من ذلك أحضان حمادة الدافئة التي ستنسيها حتماً هموم الفقر

وصعوبة المواصلات ولؤم الوالد وتكشيرة الأم وشماتة الجدة إذا وجدت. وحمادة لا يكتفي بقشور المتعة السحطية بل يغوص إلى أعمق الأعماق التي أصبحت أقرب إليه من حبل الوريد. والنتيجة أن واحداً من ملاجئ الأطفال اللقطاء بالمايقوما قد ضج بحصيلته من الأطفال مجهولي الأبوين لدرجة أن ترك موظفوه وممرضوه مكاتبهم ونصبوا خيمة في الشارع أمام المبنى واتخذوها مكاتب لهم لتصبح مكاتبهم عنابر جديدة لإيواء اللقطاء الجدد، فهل من حكيم يساعدنا في اتقاء الريح الأحمر الذي بدأ يعصف بالبيوت؟

❄❄❄

عودة إلى الريح الأحمر

فاجأتني كثرة الردود التي قرأتها في صحف عديدة عن العمود الذي كتبته قبل أسبوعين بعنوان (فلترقبو الريح الأحمر) والذي أثرت فيه قضية الهرج الجنسي الذي استشرى في بلادنا وخصوصاً جامعاتنا الفتية، وأسعدني اهتمام الكثير من الزملاء الصحفيين والقراء والآباء بهذا الأمر الخطير الذي بدأ يقلب الموازين رأساً على عقب. والحقيقة أن الناس محتاجون اليوم وقبل الغد لوقفاتٍ طويلة مع هذا الأمر لأنه جد خطير وأليم ومحزن. والمأساة أن الجميع حائرون في إيجاد الحل لهذه المأساة المستعصية. والكثيرون قد صبوا جام غضبهم على الدولة واتهموها بأنها هي السبب بما آلت إليه ظروف الناس الاجتماعية ونزوحهم من الريف إلى الحضر وعدم توفير لقمة العيش للمحتاجين وتشريد الكثيرين من أعمالهم الخ هذا المسلسل. والواقع إن الدولة لم تقصر في حسم هذا الأمر فحسب بل إن أصابع الاتهام تشير إليها في أن كثيراً من ممارساتها كانت هي أحد أكبر الأسباب في استشراء هذا الداء العضال في مجتمعنا. فهي التي تمادت في تعسفها في بسط الرقابة أول أيام الإنقاذ حينما خدشت حياء الكثير من الرجال

والنساء من خلال التفتيش الغبي الذي طال حرمات الناس دون هوادة فأصبحت السيارات والمكاتب والشقق هدفاً لرجال التفتيش في كثير من الأماكن. وكم من رجل اتهموه بالاختلاء فوجدوا أن التي معه هي بنته أو شقيقته أو زوجته أو حتى أمه. فهاج الناس واستشاطوا غضباً وكراهةً من الظلم والتخبط الذي ساد البلد. وبالمقابل لم تطل أيدي العدالة الكثير من الداعرين والساقطين لا لشيء إلا لأن هذا ابن فلان أو قريب فلان أو هو فلان نفسه. والنتيجة أن الخوف والهلع من عين الرقيب خلقت كثيراً من الغبن في نفوس الأبرياء الذي طالهم الاتهام الجزافي وبالقابل بحث الساقطون الحقيقيون عن ملاذات آمنة لا تطالها عيون الرقباء وما أسيهل البحث عن مثل هذه الملاذات في بلد اختلط حابله بنابله واشتاط فيه الهرج إلى أقصى ما يكون؟ والجميع يعلمون حجم الحماقة التي لدى كثير من أهلنا السودانيين حينما يشعرون بأن هناك من يتربص بهم أو يهين كرامتهم. إنهم لا يتوانون في ارتكاب أي شيء نكايةً في العدو أو المتربص مهما كانت النتيجة. ولذلك تفنن الكثيرون في أساليب التخفي من الحكومة ليمارسوا ما يشاءون ولدى العديد منهم قناعات راسخة أن بعض رجال الرقابة أنفسهم يفعلون ما يندى له الجبين خجلاً وفي وضح النهار طالما أنهم

محميون بالزي الرسمي أو الجاه أو السلطان المزيف. وبعض هؤلاء الجاهلين الساقطين ممن ائتمناهم على أعراضنا وسلامتنا صاروا تجاراً يبتزون من يقع في أيديهم ليدفع أكبر المبالغ دفاعاً عن سمعته أو شرفه إن كان بريئاً. وتبدأ المساومات على الطريق إلى مكتب الشرطة الذي لا يصل إليه الكثيرون ما دامت المساومات والمطالبات الملحة مستمرةً طوال الطريق. وتتم الصفقات داخل السيارات فيمضي الكل إلى سبيله بعد أن يتعشى طرف ويفلس الطرف الآخر ما دامت الدناءة التي غذاها رجال دنيئون وطورتها ظروف لئيمة قاهرة قد فرضت على هذا الشعب الطيب أن يبدل جلده الأصيل بجلودٍ زاهيات من الخارج نتنات من الداخل وكأنها جلود الثعابين الناعمة التي تحمل بين طياتها السم الزعاف. استشرت الفوضى، وتعلمنا سوء الأخلاق، وتعلمنا الغش والنفاق والخداع من أجل أن نعيش. وكثر الهرج والمرج وهوس الجنس الذي صار القاسم المشترك بين كثير من شبابنا الحاضر وشاباتنا. بنت في الثامنة عشرة من عمرها ركبت سيارة شاب وسيم ومهذب من ود مدني ولما سألها عن وجهتها قالت إنها تريد السفر للخرطوم ولما كان هو الآخر قاصداً الخرطوم فقد قبل توصيلها، ومنذ أن خرجا من المدينة بدأت لعبة الأنس الجميل التي تطورت

رويداً رويداً لتصبح قبلةً حرى ثم تسرح المسألة. ولما لم يكن لها مأوى محدد في العاصمة صارت أحضان الرفيق بل وكل رفقائه الكثيرين مأوىً لها. وهي ليست الأولى ولا الثانية ولا رقم مائة بين هؤلاء الصغيرات اللائي وجدن ضالتهن في الضلال. وواحدة أخرى في مدينة شندي لم يمنعها كرمها الفياض أن تمتع ثلاثة عشر شاباً بالتمام والكمال في ليلة واحدة حيث دخلوا عليها الواحد تلو الآخر وهم في جلسة سمر بهيجة. ولما كانت الفتاة في جمال البدر يوم تمامه وسخاؤها قد فاق كرم حاتم الطائي لم تشأ أن يزعل منها أي واحد من شلة الأنس فكفتهم جميعاً رغم أن سنها لم يتجاوز العشرين، والسؤال البرئ الذي دار في خلدي وأطرحه على كل أطباء الدنيا من اختصاصيي النساء والولادة هل يعقل لامرأة واحدة أن تضاجع كل هذا العدد المهول من شباب مختلفين وجائعين ومتعطشين في جلسة واحدة؟ أم إنها طاقة حبا الله بها فقط بنات هذا الزمن الصعب المؤلم الضائع المغموس إلى أذنيه في التيه والضياع وعدم الخوف من الله والمستقبل المظلم!

❄❄❄

جسر النيل الأبيض!

صبرنا طوال السنوات على عذابات الطريق ونحن نغير مسارنا في آخر لحظة عندما نصل إلى نهاية شارع النيل لنتذكر أن الطريق اتجاه واحد فنغير اتجاهنا مرغمين إلى الكبري الجديد الذي يضيق مدخله في كل يوم مرتين مرة من جهة الخرطوم في الصباح ومرة من جهة أم درمان عندما ينتصف النهار. ولا يدرك حجم هذه المعاناة إلا أولئك الزاحفون على صهوات سياراتهم ليلحقوا بميعاد أزف أو ليؤدوا عملاً لا يحتمل التأخير. وظلت نيران الغضب تتأجج في النفوس كلما أحس الناس بالتلكؤ الذي ظل هو ديدن العاملين في إعادة ترميم هذا الجسر العتيق الذي بناه المستعمرون بعد وقت قصير من احتلالهم للسودان ليسهل عليهم أمر التنقل بين العاصمة القومية والعاصمة الوطنية. وتمر الأيام والأسابيع والشهور والكل ينتظر لحظة الفرج بإعادة افتتاح الجسر، وخلال أيام الترقب كنا نلاحظ حركة العاملين البطيئة والباهتة والمبتسرة والضعيفة طوال الأيام وكأنهم يطمعون في إطالة أمد العمل حتى يزيد كسبهم رغم أنه ووفقاً لعقد الشركة التي قامت بالترميم فإن الدفع يتم بأسلوب التعاقد الكامل بإكمال المشروع وليس على أساس اليومية. وفي النهاية عندما سئمت الحكومة من تلكؤ العمال وبطء التنفيذ جلبت شركة من جنوب أفريقيا وضعت

شروطاً كثيرة وافقت عليها الحكومة ومن بينها أن التسليم لن يتم قبل نهاية فبراير. وقبلت الحكومة على مضض لأنها كانت تمني النفس أن يتم الافتتاح قبل مؤتمر الاتحاد الأفريقي ليزيد جمال العاصمة ويكون إضافة لإنجازات العمران التي طالت شارع النيل وقاعة الصداقة والفيللات الرئاسية. وكان رضوخ سلطات الخرطوم للأمر الواقع أنها تريد أن تخلص من هذا الكابوس الذي ما كان يحس أحد أن ترميمه في القرن الحادي والعشرين سيكلف مئات الأضعاف لتكلفة بنائه في بدايات القرن العشرين. وصبرت كل الأطراف لاسيما الموظفون البسطاء الذين لا تقوى عرباتهم على ذلك الزحف غير المقدس في ساعات النهار والذي يزيد مؤشرات السخانة في سياراتهم أضعافاً حتى يضطر بعضهم للخروج من الصف والوقوف على الرصيف وفتح الكبوت أملاً في تبريد ماكينة السيارة العتيقة التي يكاد لهيبها يصلي أقدام سائقها وركابها المكدسين بفعل فضل الظهر وعاشقي يا عم وأبناء الحي الملوحين بأيديهم لكل سائق عسى أن يصلوا إلى البيوت هروباء من رمضاء الخرطوم. وبعد كل هذه المعاناة الطويلة والانتظار الذي فاق تصور كل ذي بصر وبصيرة افتتح الكبري وسمح للناس بدخوله دون مقدمات ولا إعلام، وعاد ت الحركة فيه إلى طبيعتها. ولكن

المدهش والمؤلم حقاً والذي لا ندري له إجابةً حتى لحظة كتابة هذه السطور هو لماذا لم تكمل الشركة عملها في هذا الجسر قبل اعادة فتحه للجمهور؟ لماذا ظل الكبري مظلما بلا أي لمبات إضاءة لا في الوسط ولا في الجانبين؟ ولماذا لم يكتمل طلاء جوانبه بأي من اللونين الذين لا ندري أيهما سيكون هو اللون النهائي هل ذلك البرتقالي الجذاب الذي ظهر في الربع المواجه لأم درمان أم هذا الرمادي القاتم الذي عم معظم الجسر في جانبه المواجه للخرطوم. أم سيظل على لون الحديد الطبيعي الذي علاه الصدأ لما يقارب القرن من الزمان؟ لماذا تسلمت الدولة هذا الجسر قبل أن يسكتمل ترميمه بشكل كامل؟ وهل سيغلق مرة أخرى لتوصيل لمبات الكهرباء ثم ننتظر حتى يعاد فتحه من جديد؟ أم أنه سيظل هكذا بلا إضاءة ولا لون ولا جماليات؟ إن الأمر يحتاج إلى توضيح عاجل بل ومساءلة عاجلة. ولو كانت الدولة قد استعجلتهم لتسليمه قبل الأكتمال بغرض فك ضائقة المرور فهذا أيضاً ينصب في إطار الخطأ الذي لا يغتفر لأن الأفضل ببساطة أن نواصل صبرنا أياماً إضافية في ظل المعاناة التي هي أصلاً قائمة بدلاً من التعجل وترك الأمر على هذا الحال لأننا نخشى أن نتآلف معه

بشكله الناقص هذا وتتنفس الدولة الصعداء بنسيان ما تبقى من عمل لا ينتبه له الراكضون للحاق مواعيد العمل.

❊❊❊

الإعلام وتنمية الإنسان

تحدث الكثير من علماء الاتصال وعلماء الأنثروبولوجيا عن الإعلام ودوره في التنمية الصناعية والبشرية، واتفقوا على أن التنمية تشمل تنمية النفس الإنسانية في شتى مجالاتها إلى جانب تنمية المرافق الصناعية في شتى ضروبها المتعلقة بالتقنية الحديثة والابتكارات وتطوير المهارات واستخدام المعطيات الطبيعة بشكل أفضل يؤدي إلى تكثيف قنوات الاستثمار والنماء. والإنسان بلا شك هو محور التنمية الأول وهو أساسها وعمادها الأزلي. وطالما كرمه الله سبحانه وتعالى دون سائر المخلوقات فقد صار أهدى وأقوم بفضل تطوره الذي أسهم الإعلام فيه أيما إسهام. وكأنما كان قدر الإعلام أن يكمل ما بدأه الخالق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له، حيث قال: في سورة الكهف:﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً**﴾. سورة الكهف، آية 50. والاهتمام بتنمية الإنسان بالضرورة يؤدي لتنمية مسخرات الله لخلائقه من مواد عضوية وحيوية وحيوانات ونباتات وجمادات في الأرض والسماء. كما أن الاهتمام بالمهارات المعرفية كالعلم والصناعات والحرف والتجارة يؤدي بدوره إلى تطوير الجماعات البشرية في كل

المجتمعات بغض النظر عن طبيعتها ومستوياتها. كما يؤدي للاستفادة القصوى من العلماء والمعلمين وبقية قطاعات المجتمع من مهنيين وحرفيين ومستخدمين وغيرهم. ويتطور بالتالي شكل الخدمات التي تستفيد من التنمية والتوعية والإرشاد وغيرها من إفرازات التنمية الحديثة. وقضايا الإعلام تتسع لتشمل الكثير من العلوم السلوكية والنفسية والاجتماعية بغرض الوصول إلى استخدام قنوات الاتصال الجماهيري لتطوير كل قطاعات الحياة الإنسانية. وقد بُذلت جهود كبيرة في مجال الإعلام والاتصال والتثقيف بشكل فعال تم فيه استخدام الشبكات الحديثة والقنوات المتطورة التي أدت لالتصاق الناس بقنوات الإعلام حتى أبرزت الإحصائيات أن كل فرد يمكنه الآن أن يلتقط المعلومات عبر الأجهزة. وبالطبع فإن على رأس هذه الأجهزة يأتي الراديو والتلفزيون بحكم خصائصهما المتميزة خصوصاً الراديو الذي أكدت الدراسات وجود نحو بليوني وحدة منه في العالم، أي جهاز استقبال مقابل كل ثلاثة أفراد تقريباً. والتلفاز أصبح هو الآخر ميسوراً لاسيما في المجتمعات المتقدمة حيث أكدت الدراساتُ التي أجراها بعض العلماء ومنهم مستر جاك ليل أحد المهتمين بأمر الاتصال أن هذا الجهاز أصبح عاملاً مؤثراً في حياة البشرية خصوصاً الأسر الأمريكية التي ساد

بينها استخدام التلفزيون بدرجة كادت أن تكون كاملة. وذلك أن الإحصاء قد أكد وجود التلفزيون في 96% من البيوت التي امتلك كلٌ منها جهازاً واحداً على أقل تقدير. وقد بلغ متوسط التشغيل اليومي للجهاز حوالي ست ساعات.

ومن زاوية أخرى فإنَّ المهتمين بمعايير المجتمع وأخلاقياته قد اهتموا بدراسة تأثير قنوات الاتصال الجماهيرية، وقد أبدوا كثيراً من القلق عندما توصلوا إلى نتائج خطيرة عن تأثيرها في حياة الناس. وقد كان معظم التركيز على التلفزيون بحكم سطوته ودوره الذي بدا أكثر فاعليةً من بقية القنوات. وقد أجريت الدراسات على نوعية المشاهدين ومدى تركيز انتباههم على الشاشة، ونوعية البرامج المفضلة لديهم، واتجاهاتهم نحو المشاهدة والتلقي. وكانت النتائج أن معظم الناس قد أقروا أن مشاهداتهم كانت ذات قيمة لأنهم تعلموا الكثير مما شاهدوه. وقد برز ذلك في التعامل مع التقنيات الحديثة والحصول على معلومات وافرة عن المنتجات الصناعية فضلاً عن التعرف على العديد من إفرازات التقنية والأمور ذات الصلة بتنمية قدرات الإنسان وتأقلمه مع محيطه البشري. كما أفرزت المشاهدة المتواصلة كثيراً من المعرفة والمعلومات عن الشخصيات ذات التأثير المهم في حياة البشرية

سواء من حيث دورها التاريخي أو عطائها الإنساني المتميز. وكذلك تعرف الناس على الكثير من الأحداث ومعطيات العلم والتاريخ، والطقس، والأرصاد وغيرها وغيرها. وقد أقرت شريحة من المشاهدين الذين تقدموا في السن أنهم اكتسبوا ما يمكن أن نطلق عليه التعلم الاجتماعي أو التعلم عن العالم، حيث تعرفوا على كيفية معالجة المواقف الاجتماعية وكيفية الانسجام مع المشاكل الشخصية، وفهم ذواتهم، وطريقة اتخاذ القرارات. أما الآباء فقد أقر معظمهم أنهم أصبحوا أكثر إدراكاً لأسلوب التعامل مع أطفالهم بشكل يختلف عما كان في الماضي قبل ثورة المعلومات والفضائيات. والطريف أن بعضهم أقر بأنه صار مقلداً في معاملاته مع أطفاله لنماذج المعاملة التي يشاهدها على شاشات التلفزيون. أما المراهقون فقد أقر كثيرٌ منهم أنَّ قنوات الاتصال الجماهيري وعلى رأسها التلفزيون قدَّمت لهم توضيحات كثيرة تلاءمت مع أنماط حياتهم الجديدة. وأوضحت الدراسات أن كثيراً من المشاهدين أصبحوا يتقمصون شخصيات بعينها فرضها التلفزيونية عليهم، وهذا التقمص يتوقف على نوع الشخصية وسنها، وسلالتها، ومستواها الثقافي الخ.. ولا شك أن مثل هذا التأثير يؤكد قيمة أجهزة الاتصال الحديثة التي مكنت الإنسان من خلال نقل

الصورة والصوت والحركة واللون أن يتلقى كل ما يجذبه إلى قنوات الإعلام. وفضلاً عن ذلك فوسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة تعتبر وسائل اقتصادية كلما تم استخدامها بالأسلوب السليم الذي يفضي في نهاية المطاف إلى إحداث تغيير كبير في المجتمعات. وهذا بدوره قد أغرى القائمين على أمر التربية في معظم الدول الصناعية أن يستخدموها في مجالات التعليم وتغيير السلوك بشكل أفضل وأكثر فاعلية. وقد أدت هذه القنوات بالفعل دوراً مشهوداً وذا أهمية في بناء الإنسان.

والإعلام يشكل تنمية غير مباشرة في التعامل مع المنتجات الصناعية التى تدعم المستهلك. حيث برز دوره في تنمية وتوعية البشر ومساعدتهم على التأقلم مع معطيات التنمية الحقيقية بشتى ضروبها. وقد ورد في أحد تقارير وزارة التجارة البريطانية في عام 1991م على سبيل المثال أن برنامج التجارة والصناعة الذي كانت تعده وتقدمه هيئة الإذاعة االبريطانية بي بي سي BBC قد أسهم بقدر وافر من دخل خزينة الدولة البريطانية ممثلة في وزارة الصناعة. وذلك بما كان يقدمه من عرض للمنتجات البريطانية الحديثة وتحبيبها لجمهور المستهلكين من خلال تحليل وظائف المنتجات وملائمتها للظروف الطبيعية في الدول المعنية

بالاستهلاك فضلاً عن مقاومة هذه المنتجات لتقلبات الطقس والظروف المناخية والطبيعية وغيرها. وبعبارة أخرى يمكن أن نقول إن الإعلام بهذا الشكل يمثل دعماً بد منه للمنتجات قبل وأثناء طرحها للمستهلك. ومن هنا نبعت مقولة إنه لا تنمية بدون إعلام ولا إعلام بدون تنمية، وذلك لأن هذين العنصرين يرتبطان ارتباطاً وثيقاً ببعضهما.

وإذا وقفنا على أثر الإعلام في سلوك الإنسان نجد أن معظم التأثير ينصب على فئة الأطفال والشباب. حيث تعتبر هذه الفترة من عمر الإنسان أهم مراحل التلقي وتكوين الذات. ووقد سماها بعضُ العلماء مرحلة العطاء، ومنها ينطلق الكائن البشري في تحديد دوره في الحياة. ومن خصائص هذه المرحلة أنها تنمي غرائز الإنسان المفطورة في داخله، ولذلك ركز الإعلام معظم جهده وفقاً لتوصيات التربويين وعلماء الاتصال على المشاهدين والمتلقين في هذه المرحلة. ولا شك أن ما قدمه الإعلام لأبناء هذه المرحلة يعتبر وافراً وغزيراً لاسيما في تغذية المهارات الحيوية كالعلوم والآداب والفنون والثقافة والمهن والحرف الزراعية، والصناعية، والتجارية وغيرها مما تلح الحاجة إليه في الحياة المعاصرة.

والإعلام أيضاً وضع استراتيجياتٍ مختلفة للبرامج المقدمة للجمهور فضلاً عن المواد المنشورة التي تمثل نسبة لا يستهان بها من حصيلة العطاء. ومن خلال هذه الاستراتيجيات اتضح أن الإعلام المقروء يلائم فئات الأعمار الكبيرة في حين يلائم الإعلام المُشاهَد فئة الصغار والشباب. وهذا بالطبع لا ينفي أن كل الأعمار قد وجدت ضالتها في الأنماط الإعلامية المختلفة. كما أن عنصر التعليم والمعرفة والمقدرة على التلقي لعبت أيضاً دوراً مهماً في تحديد شكل القنوات الملائمة لكل فرد. ولا شك أن قنوات الاتصال بشقيها قد تسارعت طوال العقود الأخيرة لكسب ما يمكن كسبه من بني الإنسان في شتى مراحلهم. وهذا الاستحواذ أثر كثيراً في ما نسميه بالتنمية البشرية من الزاويتين السلبية والإيجابية. فمن النواحي الإيجابية بذر الإعلام في الناس بذور المنافسة نحو التجويد وتطوير الملكات ومضارعة الآخرين في شتى مجالات العطاء الصناعي والفني والثقافي وغيره. وانعكس ذلك في زيادة أمل الشعوب في اللحاق بركب الأمم التي تفوقت عليهم في أي ضرب من ضروب المعرفة الإنسانية. وظهر جلياً أن التطور في المجالات الصناعية والفكرية والسياسية يقتضي نقل الناس من عهد التقوقع والانكفاء على الذات إلى عهد المشاركة في كل ما يتعلق

بأمور الحياة بشتى أساليبها الوجدانية والسياسية والاقتصادية التي تمثل قواسم مشتركة لمادة الإعلام الحديث.

وكجزء من دور الإعلام في التنمية البشرية قامت بعض المؤسسات بإعداد برامج لتحبيب الناس في العمل وتكثيف احترامهم له كقيمةٍ من قيم الحياة. واهتمت بتنمية ما لدى الجماعات البشرية من قيم موروثة بالفطرة ومواهب تمثلت في العديد من أشكال الفنون. واهتم الإعلام الإسلامي والعربي بحكم سماته المحافظة بكثير من ضروب التعليم والإرشاد القائم على تنمية الوازع الأخلاقي والديني في المتلقين. ومن خلال هذا برزت العديد من المواد الإعلامية من خلال الصحف والمجلات والإنترنت وقبلها الإذاعة والتلفزيون. ونبغ بين الناس عدد من التربويين الإعلاميين مثل: الدكتور مصطفى محمود، والشيخ محمد متولي الشعراوى، والشيخ يوسف القرضاوي، والأستاذ أحمد فراج، والأستاذ عمرو خالد، والدكتور عبد الله الطيب، والدكتور الحبر يوسف نور الدائم، والشيخ محمد أحمد حسن، والشيخ عبد الجبار المبارك، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ عبد العزيز بن باز وغيرهم. وبذلك أسهم الإعلام في بناء أسس قوية بمجتمعاتنا الحاضرة وازنت بين التنمية

البشرية وتطوير ملكات الإنسان الروحية فضلاً عن الجرعات المعرفية الخاصة بمجال التطور التقني في عالم اليوم.

ومن ناحية أخرى اهتم الإعلام الدولي والمؤسسي بتطوير العلاقة بين الفرد والمؤسسة في مجال المنظمات والهيئات الدولية. واعتُبرت مداولات هذه المنظمات والمؤسسات على المستويات المختلفة ومناقشاتها ومنشوراتها واتصالاتها إعلاماً دولياً. واتضح جلياً أن الأمم المتحدة اهتمت بمشاكل الاتصال الدولي وتنميته، والانتشار الحر للإعلام، وتحقيق التعاون السلمي بين الأمم. وبادرت في هذا المضمار بعقد عدة مؤتمرات أصدرت من خلالها كثيراً من المقررات والتوصيات والدراسات والتقارير التي نُشرت في شكل وثائق دولية. وإذا ما وقفنا على معطيات الإعلام الحديث نجد أنه قد ركز خلال العقود الثلاثة الأخيرة على نمط مهم من أنماط الخدمات رمت بظلالها على كل ضروب الحياة وهي الإعلام التجاري الذي ارتكز على ما يسمى بالإعلان. ولا شك أن الإعلان قد فرض ذاته في معظم قنوات الاتصال بشكلٍ جعل الإعلام وعاءاً للإعلان دون سواه في بعض الأحيان. وهنا يثور السؤال عن جدوى هذا الأمر وإلى أي حد هو في مصلحة البشرية؟

في واقع الأمر إن هناك عدة أسس يقوم عليها الإعلام

التجاري سواء الدولي منه أو المؤسسي حيث إنه يسعى في بادئ الأمر لخلق مناخ ملائم لترويج ما يسعى إلى ترويجه من سلع أو خدمات. وهو من خلال ذلك يضع أهمية قصوى للأسواق وشكل المستهلكين وطبيعتهم. وقد برز الإعلان الدولي والمؤسسي في المجالات الصناعية والتجارية والمهنية، وجذب كثيراً من المتعاملين معه. وأصبح استخدام الإعلان من خلال التلفاز والراديو والمجلات والسينما أمراً مألوفاً على نطاقٍ واسع، بالإضافة إلى استخدام المعارض والأسواق التجارية. وفى السنوات الأخيرة تزايد الاهتمام بالإعلان على نطاق العالم، حيثُ تم استخدام محطات الإذاعة و التلفزيون في كل بقاع الدنيا. وازداد هذا الاهتمام عندما برزت أهميته في الترويج لأنواع السلع لاسيما الاستهلاكية منها ومنتجات الصناعات الثقيلة وأعمال الوكالات التي انتشرت في معظم المجالات كالسفر والسياحة والترويج والمضاربات وغيرها. وقد تخصصت بعض القنوات بشكل كامل في مجال الإعلان ولا شيء سواه، وذلك عندما أحست بأن سوق المنافسة قد اتسعت وتشعبت بلا حدود وعبر كل قارات الدنيا.

وبالطبع فقد توصلت الدراسات لأهمية الإعلان خصوصاً بعد تحليل الاستبيانات العديدة التي وزعت على معظم المتلقين

طوال عشر سنوات امتدت من عام 1950 إلى عام 1960م في دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اعتبرت تلك الفترة فترة الدراسات والبحوث عن اتجاهات التلقي. ولما كانت معظم البلدان قد أقرت بأن شكل البرامج المتنوعة هو الأقرب للمتلقين فقد برزت الإعلانات من خلال هذا الشكل البرامجي. وبالطبع فإن تلك الدراسات لم تكن تستهدف عقول الناس وإنما استهدفت جيوبهم إذا صح التعبير بمعنى أنها أرادت نثر موادها الإعلانية من خلال ما يحب الناس مشاهدته من برامج. ومن هنا نبعت أهمية الإعلان الذي تطور عبر السنوات حتى وصل إلى قلوب كل الناس بشكل ميسور. وقد ساعد في ذلك خصائصه التي تركزت فيما يلي: 1/ الإعلان عملية اتصال جماهيرية. 2/ انتقاء العنصر الشخصي في الإعلان. 3/ الإعلان نشاط يستخدم بواسطة كل المنظمات الهادفة وغير الهادفة إلى الربح وكذلك الأفراد. 4/ الإعلان مادة مدفوعة الأجر بغض النظر عن أسلوبها أو وسيلة نقلها.

وبقدر ما نجد هذا الربط الوثيق بين الإعلام والتنمية فإن هناك خلطاً بين مفهوم الإعلام ومفهوم الدعاية، كما خلط البعض بين هذين المفهومين ومفهوم التعليم في كثير من الأحيان، وذلك

أن كل هذه المفردات تعني نقل المعلومات بغرض التأثير في المتلقي وإقناعه رغم اختلاف الوسائل المستخدمة في كل منها وتعددها. والإعلام يعني في بعض مفاهيمه التبليغ. بمعنى توصيل المعلومة أو الأمر المراد إلى من يُقصد به أو يحتاج إليه. والمعنى الشائع للإعلام هو نقل الأخبار وتوصيلها إلى المتلقي. وقد اتسع نطاق هذا المدلول ليصبح معنى الإعلام هو نشر الحقائق والمعلومات الدقيقة الصادقة بغرض الإقناع والتقرير. ويقول بعضهم إن الإعلام هو نشر الحقائق والمعلومات والأخبار والأفكار والآراء عن طريق وسائل الاتصال المختلفة. وقد تكون الإضافة الهامة في هذا التعريف إشارته إلى الأفكار والآراء إلى جانب الحقائق والأخبار التي تنشرها وسائل الاتصال المختلفة. وقد كتب الدكتور عمارة نجيب في كتابه (الإعلام في ضوء الإسلام) تعريفاً للإعلام قال فيه: (الإعلام هو كل نقل للمعلومات والمعرفة والثقافات الفكرية والسلوكية بطريقة معينة من خلال أدوات ووسائل الإعلام والنشر الظاهرة والمعنوية ذات الشخصية الحقيقية أو الاعتبارية بقصد التأثير على الناس سواء عبَّر موضوعياً أو لم يُعبر، وسواء كان التعبير لعقول الجماهير أو لغرائزها). أما العالم الألماني أوتوجرون فقد نحا منحىً آخر في تعريفه للإعلام الذي

قال فيه: (إن الإعلام هو التعبير الموضوعي لكلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت). وقد استخدم أوتوجرون عبارة التعبير الموضوعي في تعريفه بحكم أن لهذا الأمر دلالته العميقة، فهو يؤكد أهمية أن يكون الإعلام بعيداً عن التعبير الذاتي للشخص القائم على أمر المادة المذاعة أو المتلفزة أو المطبوعة ليصبح قائماً على الحقائق والوقائع والأرقام، ومبنياً على الأخبار والمعلومات التي لا يرقى إليها الشك. وبهذا التعريف يخرج الإعلام من دائرة الدعاية التي عرفها بأنها: محاولة التأثير في عقول الجماهير ونفوسهم والسيطرة على سلوكهم لأغراض مشكوك فيها، وذلك في مجتمع معين وزمان معين. والدعاية بهذا التعريف تمثل نوعاً من الجذب أكثر من أنها تعمل على إقناع الجمهور بما تدعو إليه. ولعل ذلك يتسق إلى حدٍ بعيد مع ما جاء من تعريف للإعلام في كتاب (غاية الإعلام في المجتمع العربي المسلم) الذي أشار إلى أن الإعلام سلاح فتاك إذا أسيء استخدامه. فهو يغزو العقول، ويتسلل إلى الأنفس، ويستوي على القلوب، وقد يحمل في ثناياه ما يهدم القيم بدلاً من أن يدعمها، ويزعزع الإيمان بدلاً من أن يعمقه، ويعوق نشر الفكر المستقيم بدلاً من أن يشجعه. كما أنه قد يجسد ما يبرز في المجتمع من تناقضات وانفصام بدلاً من أن

يزيلها ويقضي عليها.

وللشعوب عموماً لاسيما الشعوب العربية والإسلامية قضية مع الإعلام يجب ألا نقلل من شانها أو نبالغ في بيان إبعادها. وليس بعيداً عن الأذهان ما قام به المجتمع الدولي ممثلاً في الأمم المتحدة التي اهتمت كثيراً بمشاكل الاتصال الدولي وتنميته، والانتشار الحر للإعلام، وتحقيق التعاون السلمي بين الأمم. كما قامت بعدد من المبادرات تمثلت في عقد العديد من المؤتمرات وإجراء العديد من الدراسات وإصدار العديد من التقارير ونشر العديد من الوثائق الدولية.

وكانت الأبحاث التجريبية والكمية قد انتشرت في مجال العلوم الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ولكنها لم تطبق على المجالات الإعلامية إلا في الربع الثاني من القرن العشرين. حيث انتشر هذا النوع من الأبحاث التجريبية الكمية بسرعة في الولايات المتحدة، واستخدم للمرة الأولى في الأبحاث المتصلة بوسائل الإعلام في العشرينيات، وكذلك استخدمت مناهج البحث التجريبي التي عرفتها مجالات علم النفس وغيرها من العلوم السلوكية بشكل أكبر في الدراسات الإعلامية. ولكن لم تساعد الدراسات الإعلامية الأولى على تكوين النظريات. أما التطور الثالث الذي طرأ على

الأبحاث الإعلامية في الثلاثين عاما الماضية فقد انحصر في اندماج الأبحاث الإعلامية مع غيرها من العلوم الإنسانية. فقامت المعاهد العليا التي تدرس العلوم السياسية والاجتماعية وعلم النفس والاقتصاد بعمل دراسات على وسائل الاتصال لمعرفة تأثيرها على كل المجالات. وكذلك تميزت تلك المرحلة بعمل مقارنات بين نتائج الدراسات المختلفة بهدف الوصول إلى نظرية مبنية على الدراسات التجريبية. كل هذه العوامل جعلت للدراسات الإعلامية طابعا فريداً، إذ أن مجالها قد اتسع اتساعاً كبيراً في النصف الثاني من القرن العشرين، مما أضفى عليها ثراء وقوة. وكذلك أصبحت دراسات الاتصال الجماهيري أوسع من أية دراسات يمكن أن نراها من خلال النظرة الضيقة لأي تخصص على حده. ولكنَّ هذا الاتساع الكبير قد جعل من الصعب تحديد الدراسات الإعلامية بشكل دقيق، وهو أمر ضروري ومطلوب للعلوم الحديثة. وكانت الأبحاث الإعلامية قد بدأت وصفيةً واعتمد المحررون والباحثون في الفترة الأولى على الحدث والتخصص، ولم يكن التحليل الذي يصاحب الوصف من النوع الذي يؤدي إلى تكوين نظرية، ثم طبقت الأبحاث الإعلامية بعد ذلك أساليب العلوم السلوكية التي استخدمت فيها الإحصاء والرياضيات، وبذلك تحولت عملية القياس

والمعرفة إلى علم نتيجة لاستخدام العينات والأبحاث الميدانية المعملية. بقي أن نقول إن الإنسان لا شك أصبح أكثر تشبثاً بالحياة بفضل الوسائل التي عملت على تجميلها وجعلها أفضل مما كانت عليه في الماضي. وبالمقابل أفرز الإعلام ما أفرز من مقبلات جملت شكل هذه الحياة، إلا أنه وعلى النقيض من ذلك أفرز نتاجاً سلبياً للتنمية البشرية في كثير من الأحيان تمثل في الإباحية والتفريط في عنصر الأخلاق وبث القيم الهابطة بين الناس وتحييد العقول تجاه ما تكره من بعض الممارسات كتعاطي المسكرات أو لعب الميسر، أو الزنا أو ما شابهها من الخداع والغدر والغش والتدليس والكيل بمكيالين وغيرها مما يضر بمزاج الإنسان السليم. وبالموازنة بين هذه السلبيات والإيجابيات كان على الإعلام أن ينحى منحى يستفيد من طاقاته الخلاقة ليتفادى السلبيات. فهو لا بد أن يقوم على أساس الأخلاق، ويسعى لتهيئة المجتمع لما هو أفضل، ويرشد الأفراد لتطوير وتنمية مقدراتهم بالشكل الذي تحتاجه الإنسانية قاطبةً.

❄❄❄

المؤلف في سطور:

- الاسم: عوض إبراهيم عوض محمد
- سوداني، ولد بمدينة النهود، السودان
- متزوج، وأب لأربعة أولاد وبنت.
- يتحدث العربية+ الإنجليزية+ الملايوية
- مذيع، ومعد برامج، ومحرر، ومخرج.
- كاتب صحفي، وشاعر، ومؤلف، ومترجم، ومدرب.
- نال دراساته العليا والتخصصية بماليزيا، والولايات المتحدة، والسودان.
- بروفيسور بكلية الإعلام، جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، السودان.
- عميد كلية الإعلام بجامعة الوسيلة للعلوم والتكنولوجيا.
- مدير قناة الأمل التلفزيونية الفضائية.
- سفير النوايا الحسنة لمكافحة الدرن بالسودان لدى منظمة الصحة العالمية.
- رئيس لجنة الإعلام لجائزة الشيخ البرعي برئاسة الجمهورية.
- عضو هيئة المستشارين لمجلس الوزراء الموقر.
- عضو الهيئة الاستشارية لوزير الإعلام.
- المستشار الإعلامي لوزير التجارة الخارجية.
- عضو دائرة علوم الاتصال بمعهد إمام جامعة الجزيرة.
- عضو مجلس الأمناء لجامعة غرب كردفان.
- عضو مجلس الأمناء لعشر منظمات إنسانية.

- **نال درجة الأستاذ المتخصص في علوم الاتصال من جامعة أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية.**
- **نال درجة الدكتوراه الأولى في وسائل الاتصال الجماهيرية واللغويات (اللغة الإنجليزية) من جامعة الملايو بكوالالمبور.**
- **نال درجة الدكتوراه الثانية في الإعلام، من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بأم درمان، السودان.**
- **نال درجة الدكتوراه الثالثة في العلوم السياسة من جامعة الزعيم الأزهري.**